شَيخُ البَلاغِيِّين

مُحَمَّد أَبُو مُوسَى

بُحُوثٌ مُهدَاةٌ لِفَضِيلَتِهِ بِمُنَاسَبَةِ تَجَاوُزِهِ الثَّمَانِينَ

قَدَّمَ لَهَا تِلمِيذُهُ

الدكتور

إبراهيم صلاح الهُدهُد

الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر - القاهرة
ورئيس جامعة الأزهر سابقاً
وعضو مجمع البحوث الإسلامية



مكتبة وهبة

عَوائِقُ بِناءِ العَقْلِ العِلْمِيِّ وَأَثَرُهَا فِي تَحْقِيقِ الأَمْنِ الفِكْرِيِّ جَامِعَةُ الأَزْهَرِ نَمُوذَجًا

الأستاذ الدكتور
مَحْمُودُ تَوْفِيق مُحَمَّد سَعْد
كلية الدراسات الإسلامية للبنات ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

رَوَى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بسنده عن أَبِي سعِيد الخدريّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّـهُ قَالَ : « لاَ يَمْنَعَنَّ رَجلاً مِنْكمْ مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا رَآه أَوْ عَلِمَه »(١).

وروَى التّرمذيّ في كتاب « الزّهد » من جامعه بسندِه عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ ابْنِ الْوَرْدِ عَنْ رَجلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ : كَتَبَ معاويَةُ رضي الله عنه إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَن اكْتُبِى إِلَيَّ كِتَابًا توصِينِي فِيهِ ، ولاَ تكْثِرِي عَلَيَّ ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها إِلَى معَاوِيَةَ : « سَلاَمٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْد ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقول : (مَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَه اللَّهُ إِلَى النَّاسِ ». وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ)(٢).

* * *

(١) صححه الألبانيّ في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم ١٦٨

(٢) صححه الألبانيّ في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم ٢٣١١ .

إذا ما كان الشّأن في «العقلِ» أن يعقل حركة صَاحِبِه عن أن يكون منه ما يفسد الرسالة الآدمية التعميرية الإصلاحية للحياة ، فمن المفارقة أن يكون هذا العقل معقولاً عن رسالته بالشّبهات والأحقاد والأهواء والشّهواتِ .

جمهرة ما تعانيه الإنسانية من عوائقَ عن تحقيق رسالتها التي استُخْلِفتْ في الأرضِ من أجلها آتيها من خطايا تفكيريّة اصطنعها ذلك العقل المعتقِلته الشُّبهاتُ والأحقادُ والشّهواتُ ، وممّا يلقِي على المؤسسات العلمية مسؤولية حماية الحياة : كونًا وإنسانًا ، من أفاعيل هذا العقل المعتقل المستلب ، تُحرِّره من الشّبهات والشهوات والأحقاد والأهواء .

الشّأن في معاهد العلم العليا أنّ عمودَ الأمر فيها إنّما هو من أمرين رئيسين :

- بناء العقل العلمِيّ المعرفيّ وتفعيل طاقاته وإطلاقها في استعمار الحياةِ كونًا وإنسانًا بما يقرّر الحقّ وينصره ، ويصنع الخيرَ وينشره ؛ تحقيقًا للأمن الفكريّ للأمّة والإنسانيّة .
- تحقيق الأمن الفكريّ لهذا العقل وحصانته من تأثير العوائق عن أداء رسالته أداءً حميدًا .

وكلّ انشغال بما لا يحقّق هذين إنّما هو انشغالٌ بنافلةٍ عن فريضةِ عينٍ .

ومن ثَمّ كان منطق الحكمة أن تسعَى كلّ جامعة جاهدةً إلى تحقيقِ رسالتها في البناءِ العقليِّ والمعرفيِّ لأبنائها ؛ ليتحقَّقَ الأمن الفكريّ الّذي هو اللّبنة الأساس لكلِّ ضروبِ الأمنِ الّتي يفتقر إليها كلُّ مجتمعٍ مِن أجلِ تحقيقِ حياةٍ عزيزةٍ كريمةٍ لكلِّ أبنائه .

ولا ريبَ فِي أنَّ هنالك عوائقَ ذاتيّةً وخارجيّةً في عصرنا هذا تعِيق حركةَ أيِّ جامعةٍ عربيّةٍ وإسلاميّةٍ عَن الوفاءِ بحقِّ القيامِ بهذه الفريضةِ على الوجه الأمجد .

ومن تلك الجامعات ، بل في الصدارة منها ، جامعةُ الأزهر الشَّريفِ رسالةَ حياةٍ ومصدرَ علمٍ ومعرفةٍ .

وقد شئت أن أنظر في شأنها هذا من بيْن الجامعاتِ المصريّة الأُخر لأمريْن رئيسين :

الأوّل : موضوعيٌّ متعلقٌ بالجامِعةِ نفسِها .

والآخر : ذاتيّ متعلّق بعلاقتي بها طالبًا ومعلّمًا .

الأمر الأوّل المتعلق برسالتها ومسؤوليتها وموقعها بين الجامعات المصريّة خاصة والجامعات الإسلاميّة عامة : إنَّها الجامعةُ الرّئيسة الّتي عليها مسؤولية تحصين العقل المسلم ، والعقل الإنسانيّ من كلِّ الأفكار والمذاهب الفكريّة الدّاعية إلى مقاومة الآخر بالعنف ، فهذا المُتَّجَهُ هو أكثر ما يكون في مجال الانحراف في فهمهم بيان الوحي : قرآنًا وسُنَّةً فهمًا صحيحًا منضبطًا بأصول الفهم وضوابطِه ، يسعَى إلى خدمة النّاس كلِّ النَّاس ، وليس إلى تفسِيقهم أوْ تكفيرهم ثمَّ تفجيرهم ، فنحن أمَّةٌ خلقت لإخراج النَّاس كلّ النَّاسِ من كلِّ ظلمةٍ عقليّةٍ إلى النُّور الحقِّ الّذي يحقّق للعقلِ الإنسانيّ حريتَه المسؤولية المنضبطة بالموضوعيّة والحِكمة .

نحن أمّة غير مسؤولةٍ عنْ إدخال النّاس في الإسلام بأيّ سبيل ، كلاَّ ، نحن مسؤولون عن إخراجهم بالحكمة والموعظة الحسنة من ظلمة الجهلِ بحقيقة الإسلام إلى نور العلم والعرفانِ الموضوعيّ الصّادق بحقيقةِ الإسلام ، ثم تركهم يختارون لأنفسهم بأنفسِهم ، لاَ يُكْرَهون على شَيْءٍ بأي وسيلة من وسائل الإكراه الحسيّ أو المعنويّ ، بل نحن مسؤولون عن الدّفع عنهم ليتحقق لهم امتلاك حقهم هذا ، ومجاهدة كلّ من يريد الوصاية عليْهم في هذا الشأنِ ؛ فالوصاية على عقول الآخرين وإرادتهم ومحاجزتهم عن أن يستمعوا إلى الآراء

المتخالفة والمتناقضة إنّما هي بضاعة الطواغيت ؛ لأنهم يخافون أن يُسْتَمَعَ إلى ما يخالفهم ؛ فينكشف المستور ، فمن حاجزك عن أن تسمع لغيره فاعلمنَّ علم يقين أنّه يخادعك ، وأنّه ضعيفٌ متهاوٍ ، يبصر حقيقته « الفأرية » ويخشَى تعريتها . إنهم حفدة فرعون شعارهم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص:٣٨).

﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (غافر:٢٩).

حق على كلّ مسْلمٍ أن يحَرِّر النّاسَ من ربقة وصاية الطواغيت على عقولهم وإرادتهم .

المقصد الرئيس للجهاد في سبيل تحقيق أمرين :

الأوّل : تمكين الإسلام من أن يُسْمِعَ بالحكمة والموعظة الحسنةِ هَدْيَه كلَّ أُذنٍ تعِي في كلّ عصرٍ ومصرٍ .

والآخر : تمكين كلّ ذي أذن من أن يَسْتَمِعَ ، وأن يتخذ لنفسِه بنفسِه موقفه من الإسلام : إمّا مسالمةً من غير دخولٍ فيه ، وإما مساندة بالدخول الاختياريّ فيه .

على جامعةِ الأزهر الشّريفِ أيضًا مسؤوليّة تحصين العقل المسلم ، والعقل الإنسانيّ ، من ضربين من التفكير :

- التَّفكيرِ الأعوجِ المنحرفِ الّذي يجنح حينًا إلى التّفريط في الثَّوابت المسلمة الّتي تُبنَى عليها الشَّخصيّة الإسلاميّة العربيّة للأمّة ؛ حمايةً لها من أن تذوبَ في بوتقة العقل المُناقض لما جاء به الوحي : قرآنًا وسنّة .
- والتفكيرِ المتحجّر الذي لا يحسنُ فِقهِ نبإ رسول اللهِ ﷺ الّذي رواه البخاري في كتاب « البيوع » من صحيحه بسنده عَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

قَالَ : «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

فحسب أن هذا النبأَ النّبويّ منحصرٌ هَدْيُه في مطعم الأجساد ، بينا مطعم العقول والنفوسِ والقلوب والأرواح أولى بذلك من الأجساد .

وفوق هذا كأن هذا العقل المتحجر لم يُحْسِن فِقْهَ قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(الإسراء:٣٦).

لو أنـّه اعتكف متبصرًا قول اللهِ تعالى : ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ دون أن يقال : ما لم تعلم ، لعلم أنّ فريضة عين ألا يجترَّ العقلُ المسلمُ ما ورثه عن سلفِه ؛ فإن التقليد الأجرد معرّة ؛ لأنـّه عبودية ، فمن قلد تقليدًا أجرد فإنّما وضع عقله في الأغلال .

أمَّا التقليد المؤسّس على عرفان وثيق بصحة ما قلد ، فما هو بتقليد ، بل هو اقتداء وأسوة حسنة .

والقرآن قد صرف النّهي عن اتباع الآباء بغير فقه لما كانوا عليْه .

العقلان : المتحرر من كلّ أصولٍ وضوابط ، ورأى أنَّ القيمة العليا هي الحرية المطلقة ، والعقل المتحجّر ، أسير موروث عقول الآباء دون مراجعة موضوعية تكشف ما في هذا الموروث من ملاءمة للعصر ومجاوزة ـ هذان العقلان هما سواءٌ في استجلابِ الخطر على رسالة مَنْ جعله الله سبحانه وتعالى في الأرض خليفة ليستعمرها ، فيحيا في سبيل الله جل جلاله ، فإن لم يتهيّأ له أن يحيا في سبيله ـ تعالى ـ ، وموِنع منه وحوجز قسرًا ، مات في سبيله ـ تعالى ـ دفاعًا عن ذلك الحقّ إيمانًا واحتسابًا .

هذه الجامعة : جامعة الأزهر الشريف ، الشّأن فيها أنْ تبني العقل المسلم بناءً يمكّنه أن يمارسَ ما خُلِقَ له وفقًا لاستحقاقات عصره معتصمًا بأصولٍ وضوابطَ تعصمه في أداء رسالته من الزّلل وتجاوز الحقّ والخيرِ.

والأمر الآخر الباعث «الذاتيّ» على اختياري هذه الجامعة للقول في شأنها أنّـها الجامعة الّتي عشت فيها نصف قرن طالبًا ومعلمًا ممًّا يجعلني أزعم لنفسِي أمورًا :

- أزعم أنَّ لدي قدرًا ما من العلم بشيْءٍ من حالها إدارةً على مستوَى الجامعة، ومستوَى الكلية ومستوى القسم .
- وأزعم أنّ لديَّ قدرًا ما من العلم بشأنِ مناهج التَّعليم فيها وسِياسته .
- وأزعمَ أنّ لديَّ قدراً ما من العلم بأحوال أساتذتِها ومعاونيهم في قيامهم برسالتِهم في بناءِ العقلِ المُسلم الحرّ وتربيته تربيةً عملية .
- وأزعم أنّ لديَّ قدرًا ما من العلم بحال طلابِها في مرحلتيْ الدّراساتِ العالية والدّراسات العُليا .

فكان فريضة عَلَيَّ أن أبدِي ما أراه من الأهمية بمكان في الدعوة إلى العمل على تمكين الجامعة من أداء رسالتها ، وإماطة العوائق القائمة في وجه الجهود المبذولَة لتحقِيق فريضةِ البناء العقليِّ والعلميّ والمعرفيّ لأبناءِ هذه الجامعةِ أولاً ولسائر من هي مسؤولةٌ عن تربيتهم فكريًّا وأخلاقيًّا وسلوكيًّا ؛ فبتحقيق القيامِ بهذه الفريضة : فريضة بناء العقل العلميّ المعرفي يتحقَّق الأمن الفكريُّ للفردِ والجماعةِ والأمَّة ممّا يجعلهم في حصانةٍ منيعةٍ من آثارِ الفكرِ المغلوطِ المنحرفِ المستولدِ مِن التَّقليدِ الأعمَى ، والتَّبيعيّة القميئةِ ، في مجال التَّفكير الأعوجِ والقراءةِ الشَّاذَّة للمصادرِ والمراجعِ وسياقاتِ تأليفِها وبواعثِه ، ومدى ملاءمتِها للواقع المشهودِ للأمّةِ عامّةً ولمصرَ خاصّةً في هذا الظَّرفِ الاجتماعيّ والسّياسيّ والاقتصاديّ المتأزّمِ .

استجمعت العوائقَ في سِتّة مجالات في محيطِ التَّعليم والتّعلم في هذه الجامعة ، تتمثل هذه المجالات الستة فيما يأتي :

أولاً : مجال مناهج التّعليم والتّعلم بناءً وسياسةً تنفيذية .

ثانيًا : مجال أهلية الأستاذ الجامعيّ النفسية والعقلية لبناء العقل وصناعة الإنسان الصّالح المصلح المنتج .

ثالثًا : مجال الزَّاد العلميّ والمعرفيّ المقدم للطلاب في مستويي التعليم العالي والأعلى .

رابعًا : مجال الطالب المُسْتَثْمَر فيه الجهود المبذولة في الجامعة .

خامسًا : مجال القوانين واللّوائح والأنظمة المتحكِّمة في عمليتي التَّعليم والتّعلم ، وبناء العقل والعلم والمعرفة بناءً متصاعدًا متكاملاً فاعلاً في حركة الحياةِ .

سادِسًا : مجالُ القيادة الإداريَّة على مستوى الجامعة والكليّة والقسم العلميّ.

تلك هي المجالات التي رغبت في الإشارة إلى بعضِ ما فيها من عوائق بناء العقل والمعرفة بناءً متصاعدًا متكاملاً فاعلاً في حركة الحياة ، وبعضِ ما فيها من عوامل تهديم الجهود المبذولة في هذا البناء .

* * *

ومن قبل الولوج في تبيين العوائق في كلّ مجالٍ من هذه المجالات السّتّة ، يحسن أن أتلبث قليلاً عند مصطلح « بناء العقل العلمي المعرفي » ، ومصطلح « الأمن الفكريّ» وما بينهما من علاقة إيجابية وسلبية .

أوّلا : بناء العقل العلميّ :

يفهم من قول الله ﷻ : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ (الصف:٤) ، كلمة « بناء» إنّما تطلق على العمل

المتماسك الَّذي يتنامَى على المستويَيْن : الأفقيّ المتمدّد والرَّأسيّ المتصاعِدِ ، فتمثّل حركتَه الأفقيّة ثباتًا في الأرضِ ، وحركته الرأسيّة شموخًا وسموقًا في الفضاء غيرِ المتناهي. ومن خصائصِ كلِّ بناءٍ تماسُكه ، وتأسُّسه على أصلٍ متينٍ مكينٍ غائرٍ في ما يقام عليه ، فهو لا يكون سطحيًّا لا يقاوم العوامل الّتي يمكن أن تؤثر فيه.

هذا المفهوم استحضاره ذو أهميةٍ بالغةٍ في هذا السّياق الّذي نتحدَّث فيه: سياق «بناء العقل العلمي والمعرفي» فإنّ غيابه يعني أنَّ كلّ جهـدٍ يبذل هـو لا محالة يتهاوَى أمامَ أوَّل إعصارٍ يهبّ عليْه ، وشأن كلِّ عاقلٍ أن يكونَ حرصه على حمايةِ ما يصنع كحرصِه على كمالِه ، فالقوامَة الحقّة على أيِّ عملٍ صَالحٍ تفرض بذل جهدٍ بالغٍ في صِناعتِه صِناعةً متقنةً من وجهٍ ، وبذلَ جهدٍ بالغٍ أيضًا في حمايتِه ورعايتِه من أن ينهارَ .

والله ﷻ يدعونا إلى ألا نهملَ في حماية أعمالنا الصّالحة ، فنفسدها من داخلها أو من خارجها ، فإحباط العمل بعد صِناعته عديل تركِ العمل إن لم يكن أشدَّ منه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ (البقرة:٢٦٤).

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾ (النحل:٩٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد:٣٣) .

فإذا ما استحضرنا كلمة (بناء) استحضرنا إتقان الصَّنعةِ والعناية بحمايتها في الوقتِ نفسِه .

أمّا (العقل) فإن بيان الوحي : قرآنا وسنَّة ، لم يستَخدم هذا المصطلح اسمًا للأداة التي بها يتحقق إدراك ما ليس بحِسّيّ واستثماره ، وما جاء في بيان القرآن إنّما هو اسم لعمل القلب في إدراكِه كلَّ ما هو ليْسَ بمحسوس ، سواءٌ كان

فكرًا أو شعورًا ، فلا يكاد يكون المدرك غير المحسوس يخرج عن هذين : الفكر والشّعور ، فأداة إدراكهما في القرآن هي القلب :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

وكلّ ما ورد في البيان النبويّ من كلمة (العقل) أريد به المصدر : (التَّعقل) مثل ما ورد في صحيح البخاري في كتاب (الحيض) من حديث أَبِى سَعِيدٍ الْخدْرِىِّ قَالَ : خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ فِى أَضْحًى ـ أَوْ فِطْرٍ ـ إِلَى الْمُصَلَّى ، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فقَالَ : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصدَّقْنَ ، فَإِنِّي أُرِيتكنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » . فَقلْنَ : وبِمَ يَا رَسولَ اللَّهِ ؟

قَالَ : « تكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وتَكْفرْنَ الْعَشِيرَ ، مَا رَأَيْت مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكنَّ » .

قلْنَ : وَمَا نقْصَان دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسولَ اللَّهِ ؟

قَالَ : « أَلَيْسَ شَهَادَة الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجلِ؟ » . قلْنَ : بَلَى .

قَالَ : « فَذَلِك مِنْ نقْصَانِ عَقْلِهَا ، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تصَلِّ وَلَمْ تَصمْ؟ » . قلْنَ : بَلَى . قَالَ : « فَذَلِك مِنْ نقْصَانِ دِينِهَا ».

لحاق قوله ﷺ : « مَا رَأَيْت مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكنَّ » قد فسّره أي ناقصات تعقُّل ، وناقصات تديُّن (أداء للعبادات) وليس العقل هنا هو ما يترتب عليه التكليف ، وإلاّ لما كانت امرأةٌ

قطٌّ مكلفة. وهذا الحكم النّبويّ حكمٌ على المجموع لا على جميع النّساء في كلِّ حالٍ وزمانٍ.

إذا ما كان هذا حال مصطلح (العقل) في بيان النّبوة ، فإنّ العرف الاستعماليّ من بعد قد فرَّق بين مكوني المدركات غير المحسوسة : الفكر والشّعور : أطلق على ما ينتج الأفكار ويدركها مصطلح العقل ، وأطلق على ما ينتج المشاعر ويدركها مصطلح القلب ، وعلى ذلك جرى الاستعمال إفهامًا وفهمًا ممَّا يجعلنا نجري في هذا السياق على ما اصطلح عليْه أهل العلم منْ أنَّ العقل هو الأداة غير المحسوسَة التي تنتج الفكر ، وتدركه .

ومن ثَمَّ : «قَالَ قوم : هوَ نورٌ وَضعه الله ـ تعالى ـ طبعًا وغريزةً يبصر بِهِ ويعبّر بِهِ ، نورٌ فِي الْقلبِ كالنُّورِ فِي الْعينِ وَهوَ الْبَصَر ، فالعقل نورٌ فِي الْقلبِ ، وَالْبَصَر نورٌ فِي الْعينِ ، فالعقل غريزةٌ يولد العَبْد بهَا ثمَّ يزِيد فِيهِ معنًى بعدَ معنًى بالمعرفةِ بالأسبابِ الدَّالَّةِ عَلى الْمَعْقولِ ..» [1] .

إنّ كلّ إنسَانٍ سَوِيٍّ (مكلّف شرعًا) له قدرٌ فطريّ يسمح له أن يفكّر أو أن يدركَ أفكار الآخرين ، وأنّ هذا العقل الفطريّ ينمو بالخبرة وبالتّعليم وبالتَّعلم. وأنَّ النَّاس في هذا يتفاوتون ، فالله ﷻ قد قسم القدر الفطريّ الأول من العقل بيْن المكلفين شرعًا (الأسوياء) بالسَّويّة وهذا من فيضِ عدله ورحمته بهم ، ووكَّل إلى جهودهم العمل على بناء هذا العقل وحمايته ، فتفاوتوا في هذا أيّما تفاوتٍ ، وقد نصَّ فقهاء الشريعة وحكماؤها على أنَّ بناءَ العقل وتربيته وحمايته وتحصينه ركن من الأركان الخمسة لمقاصِد التشريع الإسلاميّ [2].

---

(١) العقل وفهم القرآن . تأليف : أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسِبي (ت : ٢٤٣هـ) ، تحقيق : حسين القوتلي ، نشر : دار الكندي ، دار الفكر ـ بيروت. ط : ٢، ١٣٩٨ هـ. ص : ٢٠١ وما بعدها .

(٢) لمزيد من العرفان بمفهوم «العقل» ينظر كتابي (نقد العقل البلاغي العربي) ، نشر مشيخة الأزهر عام ١٤٤٠هـ .

ولذا فُرضت أمورٌ من شأنها تعزيز هذا العقلِ ونماؤه وحمايته ومنعتْ أيْضًا أمورٌ من شأنها تعطيله أو تغييبه أو تعجيزه .

وقد حسب غير قليل أنّ « الخمر » وما شاكلها من مطعومات هي المحرمة حفاظًا على العقل ؛ لما أنَّ الحفاظ عليْه خامس أربعة من مقاصد الشريعة الإسلامية على ما عليه جمهرة أهل العلم ، والحقُّ أنَّ هنالك ما هو أشدّ خطرًا على العقل من « الخمر » وما شاكلها من المطعومات ، وبرغمٍ من ذلك لا تجد من ابتلي بالولاية العامة على المسلمين في غيرِ قليلٍ من الأقطار الإسلامية لا يلتفت إلى التَّدابير الَّتي تقتلع هذه المفسدات للعقل ، بل إنّ منهم من يسالم صانعي تلك المعيقات للعقل عن كميل التفكير وحسينه ، بل إنّ منهم من يتجاوز مستوى المسالمة إلى المساندة والمناصرة والممارسة ، ومنهم من يمارس ما يسمى « الاختطاف الذِّهنيّ» لرعيّته ، وربما كاد يكون هذا الاختطاف هو الرّسالة التي تؤسس لها كثير من وسائل الإعلام : « الإعلان والتوصيل» : في كثير من أقطار العالمِ الإسلاميّ .

اغتيال العقولِ والإرادة بالوصاية عليهما ومحاجزتهما عن أن يسمعا للآراء المتنوعةِ ليتخذا بنفسهما لنفسهما ما يريانه الأمثل الأكمل إنما هو أشد خطرًا من اغتيال الأجساد .

اغتيال الأجساد بانتزاع الأرواح منها ظلمًا يفضِي بالمغتالين إلى الأجداث ، واغتيال العقول والإرادة جبروتًا انتزاعٌ للآدمية المفضِي إلى البهيميّة .

إنَّ منْ مسؤوليّة ولي الأمر ، بدءًا من الوالدين والمُعلم ، إلى ولي الأمر العام ـ تربيةَ هذا العقل وبناءَه وحمايتَه من كلّ العوائق التي تهدمه ، ومنْ كلِّ العواملِ الَّتي تعيق نموَّه وبناءَه ، وإنَّ تقصيرَهم في ذلك هو مِن الخيانة للأمانةِ ، ومِن غِشِّ الرَّعيَّة ، وقد حذَّر الشّرعُ مِنْ ذلك تحذيرًا بالغًا :

روَى مسلِمٌ في كتاب (الزَّكاة) من صَحيحه من حديث خَيْثَمَةَ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ».

وفي رواية لأبي داود في كتاب (الزَّكاة) من سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ».

وأشدُّ ما يكون التَّضييع حين يكون مجاله تربيةَ العقلِ وبناءَه وصِحتَه وفتوتَه وحمايتَه من كلِّ ما يمكن أن يعيقَه عن أداء رسالتِه الَّتي بها يفارق كلَّ الكائنات، والَّتي بها يستحقّ صَاحبه أن يكونَ من ولد أبي البشر سيّدنا آدم عليه السلام والذين سخر لهم الله عز وجل ما فِي السَّماوات وما في الأرضِ جَميعًا مِنه ليسخروا قلوبَهم وعقولَهم وأجسادَهم وجميعَ أمرهم لربّهم سبحانه وتعالى.

رَوَى الشّيْخانِ: البخاريُّ في كتاب (الأحكام) ومسلم في كتاب (الإيمان) من صحِيحَيْهما بسندهما عَنْ مَعْقِل بْن يَسَار رضي الله عنه عنْ رَسول اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهْوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

وفي رواية لمسلم في كتاب (الإيمان) من صَحيحه بسنده عَنْ مَعْقِلِ ابْن يَسَارٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»[1].

---

(١) تبصَّر قوله: «ثمّ لا يجهد لهم وينصَح»؛ ليتبين لك مقدار ما هو على كاهل كل ذي ولاية من حقوق من يقوم واليًا عليْهم، وليتبيّن لك أن الولاية مسؤولية غرمها أسبق من غنمها، وأن غرمها جد ثقيل لأنّ غنمها جد جليل، وليتبيّن لك موقع من تولّوا بأنفسِهم لأنفسِهم علينا، ثمّ جهدوا لأنفسِهم وبطانتهم ونصحوا لها، وتركوا الرّعيّة تغالب مصيرها المحتوم.

ذلك كلُّه قائمٌ في وجهِ كلِّ ذي ولايةٍ على أحدٍ من النَّاس بدءًا من الوالدين والمعلمِ ، وانتهاءً بوليِّ الأمر العامّ . وهذا ما ترتعد له القلوب ؛ لما تراه من التَّقصير البالغ من أولئك في القيام بحقّ من لهم عليْه الولاية .

بناءُ العقل ومعارفِه وحمايتُه فريضة عيْنٍ على كلِّ ذي ولايةٍ وإنْ صغر مجالها ، ولا تسقط جريرتها وإثمها بالتَّقادمِ ، وإنّ أوَّل ما يجب أن تحاسِبَ عليْه الشّعوبُ ولاةَ أمرِها إنّما هو هذا الباب : بناء العقول ورعايتها وحمايتها ممَّا يعيق حركتها في استعمار الأرض وتحقيق الأمن في كلّ مناحي الحياة ، فكلّ مخَافةٍ تحيط بأحدٍ من الرَّعية هي ثمرة تقصير وليّ الأمر في بناءِ عقلِ من وقع في تلك المخافةِ [1] .

واتسام العقل بأنّه عقلٌ علميٌّ إنما يتحقق له إذا ما أسِّس على اكتسابِ مهارة التَّفكير العلميّ المؤسَّس على قواعد كليّة رأسها ثلاث :

- الاستقراء التّام المنظم لما يجب أن يعمل فيه ؛ فواحدية المصدر مفضية إلى ظلمةٍ متراكبةٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها .
- التَّحليل لكلّ ما استقرئ تحليلاً عماده الفك والتفكير الفرك المفضِي إلى الفقه : (رؤية حقائقِ الأشياء في سياقاتها التكوينية والوظيفية).
- والتَّركيب : إعادة أنظمة الأشياء على نحو جديد مبني على استكشاف ما كان متواريًا عن البصيرة بالتحليل ، وهذا التّركيبُ هو عمود « الإبداع » ، فليس الإبداع إلا أن توجِدَ ممَّا هو موجودٌ ما ليس بموجودٍ ، فالبديع لا يخلق منْ عدمٍ .

وجرثومة أي عمل إبداعيّ إنّما هي إعادة ترتيب العلاقات بين الموجودات ترتيبًا يفجر المكوّن من طاقاتها ، باستكشاف وثيق علاقات موجودة مجهولة.

---

(١) من الكتب التي يحسن بطالب العلم أن يحسن قراءتها وتبصّرها كتاب : بناء العقل . تأليف : ريتشارد ليفيتون ، نشر مكتبة جرير ـ الرياض ، ٢٠٠١م

وكلُّ ذلك لابدَّ أن يمارسَ بثلاثة أمور :

- بموضوعيّةٍ حصينة من عاديات الهوى والشهوة والعصبية الحمقاء .
- وبأمانة ترقب هيمنة إحاطة العلم الإلهي بما توسوس به النفوس وتطوف به الشياطين ، وتتقيها.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الزمر:٧).

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر:١٩).

﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (التغابن:٤).

﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٣-١٤) [(١)].

- وبالإتقان الذي هو محبوب الله ﷻ من العباد ، ولا يكون إتقان إلا بحسين علمٍ وكميله وفتي عزمٍ وفحيله ، ومن قبل ذلك كله صفيّ قصد ونقيّه من ملاحظة الأغيار .

* * *

ويأتي مصطلح «**الأمن الفكريّ**» ، ولأهل النَّظر في تحرير مفهومه رؤىً ومقالاتٍ مشْتجرة ، وتفاوتتْ عباراتهم عنه تفاوتًا مخرجه جهة النَّظر الّتي يبصِر منها كلٌّ ، ولست هنا في مقام مناظرة هذه الرّؤى وتقويمها ، ولكنّي أختار أولاً تعريفًا لـ« الفكر » يتمثّل في أنّـه « اسم لعملية تردّد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان ـ سواء كان قلبًا أو روحًا أو ذهنًا بالنّظر والتّدبر ـ لطلب

---

(١) في التصريف البياني لهذه الحقيقة ترسيخ لخلق الأمانة التي هي ثمرة المراقبة الذاتية التي هي أنجع من ألف قانون، ومليار شرطيّ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ .



المعاني المجهولة من الأمور المعلومة ؛ أو الوصول إلى الأحكام أو النّسب بين الأشياء».

ويزيد فِي إيضاح هذا المعنَى ما أورده الإمام أبو حامد الغزاليّ (ت:٥٠٥هـ)، حيث قال : «اعلمْ أنّ الفكر هو إحضار معرفتين في القلبِ ؛ ليسْتخرجَ منهما معرفةً ثَالثة»[(١)].

والفكر القويم يثمر فقهًا نافذًا لِما مارس فيه العقل تفكيرًا ، وأنت تلحظ تقاربًا صوتيًّا يهدي إلى تقارب مفهوميّ ودلاليّ بين المصطلحين ، فليس ثمّ فقهٌ لشيْءٍ إلاّ إذا ما كان هذا الفقه وليدَ فكرٍ قويم ، فكلّ فقيه حقٍّ هو مفكّر حقّ .

والعلاقة بيْن (الفكّ) و(الفكر) و(الفرك) و(الفقه) علاقة عملية متينة تعرب عنها العلاقة الصّوتية . وأنا أرى أنها تبدأ بالفكِّ لتنتهي بالفرك وبينهما (الفكر) فالتفكير مرحلة وسطى بين مرحلتين : مرحلة (الفك) و(الفرك) ليتولد من التّفكير (الفقه).

لك أن تلحظ العلاقة بيْن (الفك) و(الفكر) من جهة ، والعلاقة بين (الفكر) و(الفرك) من أخرى .

(الفك) عملٌ واقعٌ في ما هو محسوسٌ ، وهذا لا يحتاج إلى تكرار ، أمَّا (الفكر) فواقعٌ فيما هو معنوي ، وهذا يحتاج إلى مزيد تكرار ، ولذا كان (الرّاء) في كلمة (فكر) دون كلمة (فكّ) ، و(الرّاء) هو الحرف المكرّر صوتيًّا من حروف العربية .

لك أو عليْك أن تلحظ أنّ الفكر لما كان عملية مكررة للفك ، وكان الفك في أصله إنّما يقع في المحسوس ، وكان الفكر إنّما يقع في المعقول كان هذا

---

(١) نقلا عن كتاب الأزمة الفكرية المعاصرة : تشْخيص ومقترحات علاج ، تأليف : طه جابر العلواني . الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالي للفكر الإسلامي ، (سلسلة المحاضرات (١) ، ط : ٤ ، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م ، ص١٥ ، ١٦ .

ممّا يلفتنا إلى أنّ المفكّر قد استحال عنده المعقول الذي يعمل فيه التّفكير متعينًا بيّنًا لا يختلط عليه مثلما كان المحسوس متعينًا بينًا لا يختلط .

أنت إذن لا تفكّر فيما هو مختلط عليك

أنت أوّلا تتبيّنه وتتحقّق منه وكأنَّك تلمسه ، ثم من بعد ذلك تقوم بعملية التّفكير فيه (تكرار تفكيكه) .

ليست وظيفة التّفكير إذن هي تعيين الأشياء وتبينها ، بل تحليلها وتفكيكها من بعد أن يَستحيل لديك إلى شيْءٍ متعيّن متبيّن تعيُّنَ المحسوسات وتبيّنها .

فإذا تمّ لك ذلك كانت الخطوة الرّئيسة لأن ترقَى إلى أفق (الفقه) للذي أنت قائم له ، فليس ثمّ فقهٌ لشيْءٍ إلاّ من بعد تفكيكه والتفكير فيه ، فكل فقيه مفكّك مفكّر ثمَّ هو مستنبط الحقائق ومستدلٌّ عليها استدلالاً من ذاتها ومن سياقاتها .

تبينت لك العلاقة بين (الفكر) و(الفرك) : كلُّ فكر هو في حقيقته مقدمة للفرك ، و(الفرك) عملٌ يتبع (الفكر) ، ذلك أنَّ في (الفرك) سبرًا للأغوار واستخراج الخلاصة .

وهذا ما جعل عملية التّكرير المرموز إليه بـ(الراء) في أثنائها ، وجعل (الراء) عينًا للكلمة ، وكأنّ التَّكرير عمود الحدث في (الفرك) بينما (الفكر) تكرير لعملية (الفك) فجاء (الراء) لام الكلمة .

وهذا يهديك إلى شَيْءٍ منْ بلاغةِ هذه اللغة في ذاتها ، وإلى عبقريتها الّتي هي وليدة عبقرية عقل أصحاب هذا اللسان العربيّ ، فخصائص هذا اللسان إنّما هي وليد خصائص عقل أهلِ هذا اللسان ، ولذا أذهب إلى أنّ كتاب «الخصائص» لأبي الفتح عثمان بن جنّي (ت: ٣٩٢هـ) إنّما هو كتاب في بيان خصائص العقلِ العربيّ من خِلال بيان خصَائص اللسان العربيّ .

وهذا كتاب لا نظير له في هذا الباب ، وهو من الكتب التي لم تجد عقلاً يلقحها ليتولد منها ما هو أجود منه عطاءً في هذا الباب .. وكذلك هو كتاب لم يحظ - فيما أعلم - بالعقل الشّارح كما حظي كتاب (الكتاب) لسيبويهِ (ت : ١٨٠هـ) فله شروح عدة ، وكما حظِيَ كتاب (الرّسالة) للإمام الشّافعيّ (ت : ٢٠٤هـ) فله شروح عدة لمْ تصلنا ، وإن كان جمهرة كتب أصول الفقه في مدرسة المتكلمين متولدةً من كتاب (الرّسالة) .

أمّا الأمن الفكريّ فيعرف بأنّه : « حماية عقل الإنسان وفكره ومبتكراته ومعارفه ومنتجاته الفكرية ووجهات نظره وحرية رأيه من أيّ مؤثّر ، سواء من قبل الشّخص نفسه أو من قبل غيره » (١).

وإذا ما نظرت في هذا المصطلح رأيت أنه يحتمل وجهين :

الأول أنْ تَجعل الفكر نعتًا للأمن تخصِيصًا له من عموم يجمع ضروبًا من الأمن ممّا يجعل كلمة (فكر) مجالاً للأمن .

والآخر : أن تجعل الفكر مصدرًا للأمن وليس مجالاً له فحسب ، أيْ : إنَّ الفكرَ الصَحيح النّصِيح هو الَّذِي يحقق للأمة أمنها ، وهي ما تحتاج إلَيْه ، ولا سيما في عصرنا .

فالأمنان متلازمان إذا تحقق الأوَّل للمفكّر تحقق الآخر للأمّة :

إِذَا تحقق الأمن في مجال تفكير الإنسان بحيث كان في لحظة تفكيره آمنًا غير متوجسٍ خِيفة ، فإنّه سيمارس تفكيرًا قويمًا ، لأنَّ من أعتَى عوامل الخطإ في التَّفكيرٍ العلمي - وقوع الإنسان لحظة التَّفكير تحت سطوةِ عاملٍ خارجيٍّ ، ومن أكثرها أثرًا عامل الخوف ، ولاسيّما التغييب في سراديب الطّغاة الذين يعشقون استنعاج شعوبهم .

(١) الأمن والإعلام في الدولة الإسلامية ، تأليف : فهد عبد العزيز الدعيج ، نشر المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب - الرياض ١٤٠٦هـ ، ص ١٠٤ (بتصرف يسير)

المهمّ أنّ تحقق الأمن في مجالِ التفكير ، لمن يفكّر ، يتثمر تحقق الأمن في مجالات الحياة الأُخر من خلالِ الفكر القويم ، وإذا ما حرم الفكر من الأمن النفسيّ لحظة صناعتِه ، فإنّه لا محالة لن ينتجَ إلا ما يجتثُّ الأمن من جميع المجالات الأخرى(١).

إنَّ أمن الفرد النفسيّ المنتج فكرًا قويمًا تحقيقه إنّما هو مسؤولية الولاة بدءًا من الوالدين والمعلم وانتهاء بولي الأمر العامّ ، فالأمن للعقل والنفسِ والقلب كالطعام بالنسبة للبدن ، لذا امتنَّ الله ﷻ على قريشٍ بذلك فقال :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش:٣-٤).

وقدّم هنا الإطعام من جوع على الأمنة من خوف مراعاة لحال قريش خاصّة ، فقد كانوا أحوج إلى الطعام أكثر من الأمن ؛ لأنَّ غير قليلٍ منه تحقَّق لَهمْ بإقامتهم حول البيت .

ونحنُ اليوم أحوجُ إلى الأمن من الطعام . بالأمن النفسي والفكريّ يمكننا أن نصنع طعامنا ، ولا يمكن بطعامنا مهما كان فخيمًا أن نصنع أمننا(٢).

---

(١) هذا يبين لك مسؤولية ولاة الأمر في تحقيق الأمن للإنسان لحظة تفكيرِه ، فلا يترصده التخوف من التأنيب أو التضليل أو التفسيق أو التخوين الوطني والاتهام بالعمالة ، والعمل لـ« أجندات » خارجية أو التكفير الذي قد ينتهي بالتفجير ، فكثيرًا ما يكون المجتمع والقائمون عليه سببًا رئيسًا في الإعاقة عن التفكير الموضوعيّ البناء ، ممَّا يترتّب عليه جنوح إلى مسوغات شرعية مغلوطة للانحياز إلى المقاومة بالعنف الذي لا يفرق بين أبرياء وغيرِهم . فالعنف لا يملك هذه المهارة : مهارة التفريق .

(٢) هذا يبين لك أن من جعل همه تحقيق الأمن الغذائي لشعبه قبل أن يحقق لهم أمنهم النفسيّ والفكري ، فكأنه ينظر إليهم أنعامًا جماع حقها تأمين علفها .

وممّا يصور لك رؤية سلفنا للعلاقة بيْن (الفكر) و(الأمن) أنّهم يلحون على الرّبط بيْن العالم والمجاهد ، كان قبل الإسلام يربط العرب بيْن (الشّاعر) و(الفارس) فقد كان الشَّاعر هو عالمهم .

ممّا تلحظه حديث العلماء عنْ العلاقة بيْن مداد العلماء ودم الشهداء ، فقد تجاوزوا مرحلة التقارب أو التّساوي إلى مرحلة الأفضلية ، فرأينا ثلةً من العلماء تذهب إلى أنَّ مداد العلماء أفضل من دم الشهداء(١) .

وهذا مخرجه أنَّ كلاً من العالم والمجاهد يسْعى إلى تحقيق الأمن لنفسِه وقومه وأمته ، هذا يحقّق لهم الأمن الفكريّ الذي يتولّد منه الأمن العامّ في سائر المجالات ، والمجاهد يحمي أمن نفسه وقومه ومجتمعه .

من بعد أن حاولت تفكيك مصطلح : (بناء العقل العلمي) ومصطلح (الأمن الفكري) فمن الحسن أن نسارع إلى القول في عوائق تحقيق هذا البناء المحقّق للأمن الفكريّ في جامعة الأزهر الشّريف .

* * *

أوّلاً : العوائق في مجال مناهج التعليم والتعلم : عائق التقليد والتلقين والاجترار :

في قولِ الله ﷻ لرسُوله ﷺ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى:٧) ، وأمره

(١) ينظر : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . تأليف ابن القيم : محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ١/٨٠ ، وكتاب : الفروسية ، تأليف ابن قيّم الجوزية ، تحقيق : مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان ، نشر : دار الأندلس ـ حائل ـ السعودية . ط ١ ، ١٤١٤هـ ، ص ١٥٧

بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى:١٠) [1] ، ما يهدِي إلى أنّ رسول الله ﷺ من قبل الوحي كان يمارس التّفكير في الكون في عزلته في غار حراء ، وأنّ ممارسته هذه لم تكن مؤسسة على أصول منهجية موضوعية منتظمة ، فهداه الله ﷻ إلى ذلك المنهج ، فكان أوَّل ما أنزل عليْه من الوحي الآيات الخمس من سورة (العلق) وهذه الآيات فيها ما يهدي إلى منهجة التَّأمل والتَّفكير وموضوعيته . فالقراءة هنا ليست هي تحويل صورة المكتوب إلى مسموع ، فما كان سيدنا رسول الله ﷺ بالَّذي يحسن هذه القراءة ، ولذا قال ﷺ لجبريل عليه السلام : (ما أنا بقارئ) ، فلفته جبريل عليه السلام بتكرار قوله : (اقرا) عليْهِ إلى أنّـه ليس بمأمور بتلك القراءة الّتي عهدت في بعضِ قومه من تحويل المكتوبِ المنظور إلى مسموع . لفته إلى أنّـه مأمور بقراءة الإنسان والكونِ والحياة بمنهجية أخرى غير التي كان يمارسها من قبل في غارِ حراء : أن يمارسها ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥) فدلّنا هذا أنّـه ليس الأهمّ الأمجد الأحمد أن تقرأ ،بل أن تقرأ بمنهج موضوعيّ منتظِم لِتصلَ بقراءتك هذه وفق هذا المنهج إلى الحقيقة التي أنت تنشد العلم بها .

---

(١) ليس حسنًا حصر «السائل» هنا في من يسأل قوت جسده ، بل هو أشمل من ذلك وأوسع : يدخل فيه سؤال كلّ ما يحتاجه المرء من غذاء جسد وعقل ونفس وقلب وروح ، وسؤال ما يَشفي أدواء الجسد والنفس والعقل والقلب والروح ؛ فكلّ ذي حاجة حقه أن يجاب سؤله ممن يقدر على ذلك إذا ما كان السّائل غير قادر هو بنفسِه عن أن يحقق حاجاته بنفسِه لنفسِه ، أمّا من كان قادراً على ذلك فليس من النصح له وللأمة أن يعطى من يسأل شيئًا هو قادر على أن يحققه بنفسِه لنفسِه .
ومن بيان النبوة قوله ﷺ : «لاَ تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ لِغَنِيٍّ وَلاَ لِذِى مِرَّةٍ سَوِيٍّ». (جامع الترمُذي ـ الزكاة) صححه الألباني .

ودلّنا جعل ختام السّورة (رأس معناها) قولَ الله تعالى ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق:١٩) إلى أنَّ هذه القْراءة المنشودة وفق هذا المنهج هي الّتي تنتهي بصاحبها المتقنها إلى هذا المقام العليّ (اسْجد واقترب) .

ابتدأت السّورة بالأمر بفعل (اقرأ) وختمت بالأمر بفعل (اسْجد) و(اقترب). فكلّ قراءة تعلمًا أو تعليمًا لا تنتهِي بصاحبها إلى هذا المآل الأعلى الأنفس : «اسجد» و«اقترب» هي قراءة عقيم ، وهي لن تكون القراءة الودود الولود الحاملة إلى مقام «اسْجد» و«اقترب» إلا إذا ما كانتْ وفق المنهج الأمثل الذي رسمتْه السُّورة لهذه القراءة .

ومن ثمّ لم يكن في الإسلام المأم الأنفس والمحج الأقدس أن تعلم وتعلّم فحسب كيفما اتفق ، بلْ الأهمّ الأمجد الأحمد أن يكونَ التّعليم والتّعلم وفق منهج موضوعيّ منتظم ، وهذا يعنِي أنَّ العناية بفعل التَّعليم والتَّعلم وبما يتعلّم ويُعلّم دون العناية بمنهج هذا الفعل وأدواته ومسالكه إنّما هو فعلٌ لا يتوقّع أن يؤتي ما يرجَى منه. ويكون الإهمال في الاعتناء بمنهجِ التّعليم والتَّعلم عديل الإهمال في الفعل نفسِه ؛ لأنّ الفعلين سيؤديّان لا محالة إلى مآلٍ واحدٍ هو الجهل بالحقيقةِ الَّتي هي طَلبة العقلِ الآدميّ الرَّشِيد .

من هنا يتبيّن لنا القدر العليّ العظيم للاعتناء بمنهجيّة القراءة تعلمًا وتعليمًا. وكلُّ جهدٍ يبذلُ فِي هذا الفعلِ : التَّعليم والتَّعلم ولا يكون مؤسّسًا على منهجٍ مَوضوعيٍّ منتظمٍ هو جهدٌ عقيمٌ .

* * *

لا ريب في أنّ القراءةَ المنهجيّة تعليمًا وتعلّمًا هما الرَّافدان الأساسان لبناء العقل العلمي المعرفي المنتج أمنًا فكريًّا .

ومصطلح (التعليم) لم يرد في البيان القرآني وجاء فعله (علّم) في مواضع عدة ، أولها قولُ الله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة:٣١) وقوله

(علم) يحتمل هنا وجهين : **وجه التَّلقين ، ووجه الإقدار** على أن يتعلَّم بنفسِه ، فمنحه القدرة والأدوات وهيأه لذلك ، فمارسَه بنفسه ، فيستحيل إلى معنى (التَّعلم) وأهل العلم في ذلك ثلَّتان :

ثلةٌ تذهب إلى معنى التَّلقين .

وثلةٌ تذهب إلى مَعنى التّهيئة والتّيسير .

أمَّا قوله تعالى ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ** ﴾ (النجم:٤-٦) فالمعنى إلى التلقين ظاهرٌ .

أمّا ما جاء في قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ (النساء:١١٣) فالأقرب أنـّه جامع للمعنيين معًا :

« التّلقين وحيًا » عن طريق جبريل عليه السلام و« التَّعلّم » عن طريق الإلهام .

وفي قوله تعالى : ﴿ **مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ** ﴾ ما يهْدِي إلى أنـّه علّمَه ما لَم يكن لرسول الله ﷺ ، وهو صفوة الخلق ، أن يتعلمه بنفسِه ، فَهُوَ بذاته غير مهيّئ لذلك ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى تفضّل عليه ، فعلّمه ما لم يكن مُهيَّأً أن يتعلّمه بنفسِه أوْ يعلّمه العالمون أجمعون .

وهذا يفهم أنَّ لديه ﷺ من العلم ما لا سبيلَ لأحدٍ غيرِه أن يعلم .

أمَّا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ** ﴾ (الرحمن:١-٤)، فـ« التّعليم » هنا بمعنى التَّهيئة والإقدار ومنحِه القُدرات والأدوات الّتي تمكّنه من أن يتعلّم إِذَا علّم ، وليس معناه التّلقين المباشر .

مِن هنا نُدرك أنَّ التَّعليم يكون حينًا تلقينًا ، وحينًا يكونُ بالتَّهيئة للتَّعلم بإكسابه القدرات والمهارات والأدوات والخبرات الّتي يحقّق بها فعل التَّعلم وحينًا يكون بِهما معًا .

ومِن البيّن أنَّ الإنسانَ منذ ولادتِه يبدأُ مرحلة تلقّي معارفه من طريق التّعليم الَّذي يكون فيه الوالدان ومن يحيط بِالوليد هما الحاملان هذه المسؤوليّة ، ولذا

كان الاعتناء بهما معرفيًّا وتربويًّا عاملاً رئيسًا من عوامل نشأة جيلٍ يتَّسم بالبناء العقليِّ والمعرفيِّ المتكامل والمتصاعد ، ويبقَى رافد التَّعليم هو الأكثر تأثيرًا في صناعةِ الإنسانِ في حِقبةِ التَّعليم الابتدائيِّ وما قبله ممًّا يلقَي على المعلِّم مسؤوليَّة جسيمة في صِناعةِ عقلِ الطَّالبِ وتشكيلِه ، وهذا يستوجب على الولاة القوَّامين على الأمرِ أن يكونَ القائم بهذه المهمّة في هذه المرحلة بالغَ القدرة والمهارة والأدوات الّتي تحقق له القيام برسالته ، وأن يكونَ اشتغاله بذلك اشتغالاً برسالة حياة يسلك من خلالها إلى مرضَاة ربّه ﷻ ، وليس طريقًا إلى اكتساب رزقه ورزق ولده يرغب عنه إن وجد طريقًا أيسر وأوفر عطاءً وإن كان غير شريفٍ .

وهذا في واقع الأمرِ المشهود في عَصْرنا ومِصرنا غير متحقّقٍ على أيِّ وجهٍ ، بل ولا ملتفت إليْه ، وليس في الأفق ما يشير إلى الرغبةِ الصادقة الحاسِمة من الْمسْؤولين في الالتفاتِ إليْه ، ممّا يعنِي الإصرارَ على أن يبقَى الإنسان في حقبة عمرِه الأولى خاضعًا لعامل التَّعليم ممّن لا يملك مهارةَ التعليم ولا يملك قدرة إنتاجه . وإذا ما بقي شأن المسؤول عن التَّعليم في هذه الحِقبة على ما هو عليْه ، وبقي نظر المسؤولين إليه وإلى أهميّته ، وإلى وجوب استحقاقه ما يكفل له أداءَ مهمَّته في كرامةٍ وعزّة ، يؤمن فيها الطالب أن هذا المعلم هو المتفضّل عليْه ، وأنّ أثره فيه لا يقلُّ عنْ أثرِ والديْه إن لم يَفقه .

وما دام المعلّم في هذه الحقبة مسْتشعِرًا هوانَه وهوان رسالته ، فإنَّ الأملَ في إصلاحِ الإنسانِ وبناءِ عقلِه ومعارفِه أملٌ ضعيفٌ ، بل يكاد يكون أمَلاً موءودًا[1] .

---

(١) مما يحسن الالتفات إليْه أن يجعل التعليم الثانوي الأزهري ثلاث شعب : شعبة الدراسات الإسلامية والعربية ، شعبة الدراسات الإنسانية، شعبة الدراسات العلمية ، وأن تكون الشعبة الأولى (الدراسات الإسلامية) خمس سنوات ، وهي وحدها المأذون لها الالتحاق بكليات أصول الدين ، والشريعة ، والدعوة ، واللغة العربية ، والتربية (شعبة الدراسات الإسلامية واللغة العربية) ، ويكون لمن يلتحق بها خصوصية معنوية ومادية في أثناء الدراسة والتخرج والتعيين الوظيفيّ .

هذه الحِقبةَ في مسيرة صناعةِ العقلِ والمعرفةِ للإنسان عامة ، وفي التَّعليم الأزهريّ خاصّة ، يجبُ أنْ يلتقِي فيه رافدا التَّعليم والتَّعلُّم لا يعلو « التعليم » فيها على « التعلم » كثيرًا ، ويظلُّ رافد التَّعلّم ينمو ويتكاثر حضوره في حياةِ صِناعةِ الإنسانِ وبناءِ عقلِه ، أو ينبغِي أن يكونَ كذلك حتى يكونَ رافد التَّعلم الذَّاتيّ داخل « المعهد » وخارجه معادلاً على الأقل لرافد التَّعليم إن لم يكن يفوقه نوعًا وكيفًا وكمًّا .

في هذه الحقبة تكون مسؤولية المعلمِ مسؤولية مزدوجة :

- مسؤولية التَّعليم لما لا يمكن تعلّمه ذاتيًّا ؛ وذلك بتقديم النّصِيحة في كيفية تلقّي المعرفة ، وتحليلها واستثمارها قدر الطاقة ، بحَيْث يتمكَّن الطالب في هذه الحِقبة من أن يمارس التّعلّم في بعضِ أبوابِ ما هو مقرّر عليه في كلّ فرعٍ من فروعِ العلم المختصّ به ، فيستهدي بصنيع معلِّمِه فيما قام فيه بتعليمِه وتقريبه له ، ولفته إلى منهجيّة النَّظر في هذا الباب من العلم ، ليحاولَ الطَّالب أن يمارسَ ذلك بنفسِه فيما لم يقم المعلم تعليمه له .

محصّل الأمر أنّ هذه المسؤولية تتجاوز إدخال المعلومات وتمكينها في العقل ، إلى البصر بمنهج الفهم والإفهام الذي اقترفه صانع هذه المعرفةِ .

ليس الأهم ماذا قال العالم ، وإنّما كيف صنع هذا العالم هذه المعرفة ، وكيف أبان عنها .

هي مسؤولية كشف المستور من مناهج التفكير والتّعبير لدى الأعيان من أهل العلم في كلّ باب من أبوابه .

وهذا يوجب ألا يكون قياس قدرات الطلاب في ما شرح لهم ، بل فيما أوكل إليهم فقهه بأنفسِهم بنسبة لا تقلّ عن خُمْسِ ما عليْهم ، لتكون هذه النسبة هي المائزة بينهم .

● ومسْؤولية التّهيئة والإعانة على التّعلّم الذّاتيّ فيما ليْس من مقررات الدَّرس النِّظاميّ ، فيحرص على حثّ طلابه على أن تكون لهم قِراءاتٌ واعيةٌ في ما ليس مقرراً ، وأن تقام في «المعهدِ» أنشطةٌ قرائيّة يتنافس فيها الطُّلاب فيما بينهم تحت إرشاد أشيْاخهم ، ويكون لهذا التّنافس تقديرٌ عالٍ من كبارِ المسؤولين .

وهذا لا يتحقّقُ إلاّ بأن تكونَ هنالك مدة زمنيّة للقراءة الحرَّة داخل مكتبة «المعهدِ» الوافرة بالكتبِ القيِّمة في موضوعِها ومادَّتها وإعدادها . فتَأسيس مكتبة «المعهد» يجب أن يسبقَ تأثيث مكتب المسؤولين في المعهد بفاخر الأثاث .

إنَّ معهدًا بغيرِ مكتبة ، وبغيرِ مدَّة زمنيَّةٍ أسبوعيَّة للقراءة الحرَّة ، معهدٌ لا ينتج من يكون صَالحًا لأن يرتقِي إلى مَرحلة التَّعلِيم الجامِعيّ .

هذا المنهج في التَّعليم والتّعلم هو الأوْلى والأعلَى الأخذ به في هذه المرحلة .

وفي الإعراب بِمصطلح (المعهد) عَنْ موضع الدَّرس في مرحلة التّعليم ما قبل الجامعة في الأزهرِ الشَّريف ما يَهدِي إلى أنّ الرّسالة الرئيسة ليست درسَ العلم من حيث هو درسٌ على الرَّغمِ من علوّ هذه الغاية ونبلها ، ففي معنى (المعهد) من التَّعهّد والمراقبة والمتابعة ما يجعل الدّرس مقومًا من مقومات الرّسالة ، وأنَّ الدِّراسة النّظامية سبيلٌ إلى ما هو أعلى ، سبيلٌ إلى أنْ يتعهد القوَّامون فيه طلاَّبَ العلم في هذا «المعهد» بالرِّعاية والتّربية والتّنمية والبناءِ والحِمايةِ والتَّحصينِ عقليًّا ولِسانيًّا وخلقيًّا وسلوكيًّا في علاقتِهم بأنفسِهم وأشياخِهم وبأهليهم ، وبالنَّاسِ كلِّ النّاسِ ثمَّ من قبلِ ذلك كلّه علاقتِهم بالله ﷻ وبرسوله ﷺ[1].

(١) لذا كان مصطلح «المعهد» أعلى ، وأدل من مصطلح «المدرسة» : مصطلح «المدرسة» قد يفهم منه أن الهم الأعظم هو مدارسة العلم مدارسة علمية قد تكون خواء من القيم الآدمية ، بينا مصطلح (المعهد) مصطلح جامع لهما معًا .

ذلك ما ينبغِي أن يكونَ رسَالة «المعهد» في التّعليم الأزهريّ قبلَ الجامعةِ . فالمعاهد هي ميدان صناعة رجالٍ وإعدادهم وتهيئتِهم ليكونوا أهلاً أن يكونوا مشاريع علماءٍ يصنعون العلم والمعرفة ويصدّرونهما صَفاء نقاءً للعالم كلٍّ العالمِ ، ويعلمون النّاسِ بلسان حالهم قبلَ لسان مقالهم ؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النورِ .

رسالة «المعهد» صِناعة من يكون صَالحًا لأنْ تتولّى الجامعة البناء على ما أسس في هذه المعاهدِ .

تلك هي مسؤولية المعهد الأزهري في مرحلة التَّعليمِ الأزهريّ ما قبل الجامعة ، فإذا ما صلح منهاج التَّعليم والتّعلم في مرحلة ما قبل الجامعة صلح لا محالةَ منهاجهما أيضًا في التَّعليم الجامعيّ ، وإذا ما فسدا ، فلا سبيل إلى الإصلاح في مجال الجامعة مهما بذل من جهودٍ صَادقَةٍ صَارمة ، فإنّ ثَمرة هذا الإصلاحِ ستكون قليلةً وهزيلةً أيضًا .

وإذا ما نظرنا في الواقعِ المشهود في المرحلة ما قبلَ الجامعة في المعاهد الأزهرية ألفينا أن الأمر قائمٌ على منهاج تلقين الطالب ما هو مرقونٌ في الكتاب المقرّر ، والَّذي لا يجوز للمعلم وللطّالب أن يتجاوزَه قيد أنملة ، وما على المعلم إن كان يرى ما هو فيه رسالة يتزلّف بإتقانها إلى ربّه ﷻ وقلّما يتحقق ذلك .

وهذا المنهج في التّعلِيمِ والتعلّم ينحّي جانبًا الممارسة العملية لِما يجب أن تكون قرينًا به تلك الممارسة ، ولذلك تجد غير قليل من طلاب المعاهد الأزهرية ليس لما يلقّنون فيها حضورٌ في مسلكهم مع الله ـ تعالى ـ ومَع أنفسِهم ومع النّاس .

كلّ علم لا يكون حاضرًا في سلوك حامل ذلك العلم هو والعدم سواءٌ . صَاحبه رأسٌ في الجاهلين .

كلّ منهجٍ في التَّعليم والتَّعلم لا يكون من أصوله الرَّبط بيْن العِلم العقليّ واليقين القلبيّ والتَّحقيق الفعليّ إنّما هو منهجٌ عقيمٌ .

أولئك الطّلاب الّذين أفسدتهم سياسة التَّعليم التّلقينيّ والحشو في الأدمغة ، وتحَوّل ما هو في السّطور إلى الصّدور ، هم الذين يساقون إِلى الجامعة وترغم الجامعة على أن تفتح لهم أبوابها .

يأتي هذا الطَّالب بكلٍّ هذا الفساد المنهجيّ في تعليمه إلى المرحلة الجامعيّة العالية (الإجازة العالية) فيجد منهجًا في التّعليم والتعلم لا يكاد يفارق ما لقيه في المرحلة السّايقة .

المنهج هو هو . ليْسَ ثَمة فرقٌ جوهريّ في منهجيّة التّعليم والتَّعلّم بين ما هو قائمٌ في ما قبلَ التّعليم الجامعي ، سِوى أنَّ المنهج الجامعي قد يتميَّز بكثافة القضايا والمسائل والمذاهب والآراء والتّورّك العقليّ والتشقيقِ في باب من أبواب العلم التي يمارس الأستاذ الجامعي تعليمها الطلاب .

منهج التّعليم والتَّعلم في الجامعات المصرية عامّةً ، وجامعة الأزهر خاصة ، هو العائق الرّئيس من عوائق بناء العقل والمعرفة للإنسان .

إن إصلاح سياسة «التّعليم والتعلم» في هذه الجامعة فريضة الوقت التي لا تقبل فريضةٌ قبل الوفاء بحقّها .

وهذا يستوجب إعادة نظر فاحص لكلّ هذه المناهج ، وتنحية كلّ ما هو فاسدٌ منها ، وإلاّ سيبقَى الأمر على ما هو عليه من نماء الجهل الأحمق .

ويترتّب على ذلك فساد مناهج التّقويم ، والاختبار في التّعليم الجامعيّ العالي والأعلى ، فهي مناهج تعتمد على قياس التَّحصيل والحفظِ واجترار ما هو مكتوبٌ في «المذكرة» .

والأصل أن يصنع كل طالب بنفسِه لنفسِه كتابه تحت إرشاد أستاذه ، هو الذي يجمع القضايا والمسائل ومذاهب العلماء وآراءهم في كل قضية ومسألة ، ثم يُصنِّف ويُحلِّل ويستنبط تحت إرشاد أستاذ ، ومما صنعت يمينه يكتب في نهاية العام ما يسأل عنه .

يتفق الطلاب في معالم خارطة الطريق ويتفاضَلون في المادة العلمية استقراءً وتحليلاً واستنباطًا وفق استيعاب كلٍّ لمنهجية أستاذهم في تدريبهم على ذلك.

* * *

وإذا ما عمدتَ إلى مناهج التعليمِ والتّعلّمِ في مرحلةِ الدّراساتِ العليا ، فلن تجد ـ أيضًا ـ فرقًا جوهرِيًّا بيْنه وبيْن منهجها في مرحلة الدّراسات العالية (الإجازة العالية : الليسانس) ، الأمر هو هو ، لا يعدو توسع القول وتعديد المذاهب في القضيّةِ الواحدةِ ، وتعْدِيدِ الآراءِ في المسألة الواحدةِ دون الذَّهاب إلى تحليلها والموازنة بيْنها ، وتِبيان مخرجِ كلِّ مذهبٍ في القضيّةِ ، وكلِّ رأيٍ في المسْألةِ وما يمكن أن يستثمر من هذه المذاهبِ والآراء ويبنى عليْه .

* * *

الأستاذ الجامعيّ في مرحلةِ الدّراسات العليا هو أيَضًا ملقّنٌ حريصٌ على حشد المعلومات ، وقليلٌ أولئك الذين يكلفون الطلاب بممارسة التعلّم الذَاتيّ من داخلِ المقرّر النّظامي ومن خارجه في المعرفة المساندة ، ومراقبة فعلهم وفاعليته في بناء عقولهم ومعارفهم .

وقليل أولئك الأشياخ الذين يجعلون منْ أنفسهم واحدًا من الطلاب الذين يشرف على تعليمهم ، فيكلف نفسه بما يكلفهم ، فينتج ، ويعرض على طلاب العلم نتاج عقله مرقونًا لا لِيحفظوه ، أو لِيتخذوه مصدرًا ، بل لِيُجرِي كلّ

طالب حواراً ناقداً ، وليستكشف بنفسه منهج شيخه في الفهم والإفهام في المسألة المعروضة ، ومصادره التي انطلق منها ، ومنهجه في الأخذ عنها ومحاورتها وفي اختياره لها ، وليستكشف الطالب أيضًا ما تشوَّف أن يجده من عقلِ شَيخِهِ ، فلم يجد ، فيسعى إلى تبيّنِ بواعثِ هذا السّكوتِ من شيخه .

وهكذا يستحيل ما يقدّمه الشّيخ لطلاب العلم في هذه المرحلة إلى طرف محاورة ، ومناقدة ، ومناقضةٍ في شجاعة أدبيّة تقرّ بها عين شيْخِه ، وأنا أحاول مع طلابي شيئًا من ذلك .

وممَّا يجب أن يكون قائمًا في مناهج التّعليم والتعليم في جامعةِ الأزهر أن اليقين بأنّ ما جاء به الأعيان في علوم العقيدة والشّريعة وعلوم اللغة هو الّذي لا يمكن أن يُؤتَى اليوم بما يقاربه ، فضلاً عن أن يتجاوزه في النَّوعِ والقيمة ـ إنما هو أمرٌ لا يحلّ البتّةَ للأستاذ الجامعيّ أنْ يأذن له أن يحوم حول حمَى عقله ، فالعقل المسلمُ الحقّ لا يتعبّد بمقالة أحدٍ إلا ما قال ﷻ ورسُوله ﷺ .

وما قاله سيّدنا مالك بن أنسٍ ﷺ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا : « كلٌّ يؤخذ منه ويرد عليْه إلا رسول الله ﷺ » ، إنّما هو مقالة داعية إلى ترك تقديس صنيع الآخرين ، والاكتفاء باتخاذ ما صحَّ وجاء نبراسًا يضيءُ السبيل ، وليس مطيّة تقود ولا تقاد .

والله ﷻ قد دعا إلى أنْ نتخذ موقفًا علميًا موضوعيًا فاحصًا من كلّ ما نسمع ونبصر ، يقول ﷻ : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ (الإسراء:٣٦) .

ذلك النهي يقيم كل من لم يتخذ موقفًا تحليليًا نقديًا موضوعيًا من كلّ ما يسمع ويبصر في أي مجال من مجالات الحياة في منزل العاصي لله ﷻ .

وقد أهدَى إلينا سيّدنا عبد الله بن مسعود ﷺ أصلاً تربويًا بالغ النّفع في صناعة الإنسان عقلاً وعلمًا وعملاً : روى أبو داود في كتاب (الزّهد) موقوفًا أنّ

سيدنا عبد الله بن مسْعود ﷺ قال : «ائْتوا الْأَمْرَ مِنْ تَدَبُّر ، وَلاَ يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً ، قَالُوا : وَمَا الْإِمَّعَة؟ قَالَ : الَّذِي يَجْرِي بِكلِّ رِيحٍ»(١).

وفي سنن الترمذيّ (كتاب : البر والصلة) مرفوعًا ، وفي رفعه مقال عَنْ حذَيْفَةَ ، قَالَ : قَالَ رسول اللَّهِ ﷺ : «لاَ تَكونوا إِمَّعَةً : تَقولونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاس أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَموا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنوا أَنْفُسَكمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاس أَنْ تحسِنوا وَإِنْ أَسَاءوا فَلاَ تَظْلِموا»(٢).

ففي هذا دعوةٌ صريحةٌ بالغةٌ إلى أن يتخذ المرء موقفًا نقديًا من جميع ما يباشره في هذه الحياة ، فلا يجرى مع النَّاسِ ، بل يجري مع الدليل الصَّحيح والبرهان القويم وإن كان وحده ، فأنت الجماعة ما كنت على الحقّ ، ولو كنت وحدك . هذا ما يجب أن تُبْنى عليه شخصية طلاب العلم خاصة وشخصية كلِّ مسلمٍ ؛ فإنَّ به استقامة الحياة مسيرها ومصيرها .

هنالك فرقٌ بالغ بيْن أن نفقه مناهج الأعيان في التلقّي وفي التَّفكير والاستنباط والاستنبات وفي التعبير أيضًا ، وأن نجري على منوالها ، فلا تعدو أقدامنا على الطريق مواقع أقدامهم .

هذا من كفران نعمة العقل الّتي أنعم الله ـ تعالى ـ بها على كلِّ إنسان في كلِّ زمانٍ ومكان . أولئك الأعيان كانوا يصنعون لزمانهم منهجَ تفكير وتعبير ، وعلينا أن نصنع لزماننا ملتزمين بالأصول والضَّوابط الّتي تعصم حركة العقل عن أن يفسقَ عن محيط العقيدة الإسلامية الصَّفاء ، وعن فسطاط الشريعة

---

(١) الزهد . تأليف : أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِسْتاني (المتوفى : ٢٧٥هـ) تحقيق : أبي تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد وأبو بلال غنيم بن عباس ابن غنيم ، نشر : دار المشكاة للنشر والتوزيع ـ حلوان ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ . ص١٤٠ (الأثر رقم ١٤١).

(٢) قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . (ضعف رفعه الألباني وصحح ما كان موقوفًا على ابن مسعود).

الغـراء ، وما عدا ذلك فلك أن تجري على ما فيه صلاح عقلك وأمرك وصلاح نفسك وقومك وزمانك .

إنّ البرّ القويم بأولئك الأعيان ألا نقلدهم في أقوالهم ، وإنّما نقلدهم في همتهم العالية ، ورغبتهم في صَلاح أنفسهم ومجتمعهم وزمانهم .

ومن البرّ القويم بهم أن نعلّم طلاب العلم منهج النَّظر في مؤلفاتهم ، بحيث يملك طالب العلم القدرة على القراءة المنتجة في أسفار أولئك الأعيان أمّا أن نلقّنهم ما قالوا ، ولا نعدو ذلك ، وكأنـّنا إزاء بيان وحي : قرآنًا وسُنَّة ، فهذا مِن التَّقليد الأعمَى ، والتقليدُ في أصلِه عبودية ، ومن قلّد من بعد أن تفرَّس القول وأدلّته في موضوعية وتجرُّد وانتهى إلى ما انتهوا إليه ، فما قلّد ، بل توافق جهــده مع ما انتهى إليْه جهدهم ، وما ذلك بالتقليد بل هو الاجتماع على الحقّ ، وهو من الاقتداء الحميد والأسوة الحُسْنَى .

إنّ الجمود والخلل في مناهج التعليم والتعلّم هو الذي أقام العائق الصلد بين عقول بعض طلابِ الجامعة والرّؤية الصحيحة لمنهج الإسلام في الحياة ولا سيّما في حال الفتنةِ ، ممّا جعل بعضًا من أولئك الطلاب ينحاز إلى رؤًى غير قويمة في معالجةِ الفتنة ، وجعل بعض أساتذة الجامعة ينتمون إلى بعضِ الأحزاب السياسية والتيارات الاجتماعيّة طمعًا في عرضٍ من الدّنيا ، وأهل العلم وطلبته لا يليق بأيّ منهم أن ينتمِي إلى تجمّعٍ سياسيٍّ أو نحوه أيًّا كان ؛ ليبقَى طالب العلم وشيخه في أمنة من التعصب لغير الحق بالحقّ .

أهل العلم وطلبته ينصرون الحقّ بالحقّ أيـًّا كان صَاحبه دون تفرقة بين الناس في هذا بناء على أنسابهم ، وأحسابهم ، وعقائدهم ومراكزهم الوظيفية والاجتماعية .

لو تحقّق بناء العقل العلمي والمعرفي لطلاب الجامعة ما رأيت البتة تطرفًا وانحيازًا إلى أي جانبٍ غير جانبِ الحقّ الصراح .

محصّل القول في هذا : أن الرسالة الرئيسة للجامعة إنّما هي بناء العقل العلميّ الواعي بما تنتج العقول العلمية الأخر في السّياقات العلمية والثقافية والحضارية الأخر ، لا ليقتطف ثمار حركتها ، بل لينظر في منهاج حركتها وفعلها وأدواتها لتفعيل تلك المناهج كيما يكتسب خبرة بهذا .

هو عقلٌ يعي مناهج النظر والفعل ، لا ليقلد بل ليسْترشد .

وهو عقلٌ لا يحمل ثمرات فعل الآخرين كَلاًّ . ما أفلحت أمة حملت ثمار فعلِ غيرها قطّ ، فكيف بمن اقتات بها ؟!!!

من أطعمك استعبدك .

* * *

ثانيًا: العوائق في مجال أهلية الأستاذ الجامعي لبناء العقل وصناعة الإنسان

إِذَا ما كان منهاج التّعليم والتَّعلم هو عمود الأمر في فريضة بناء العقل والعلم والمعرفة ؛ لِما له من أثرٍ بالغٍ في تحقيق الأمن الفكريّ للفرد والجماعة والأمة ، فإنَّ الأستاذ الجامعيّ هو صانع ذلك المنهج القويم ، وهو القوّام عليه : رعايةً وتطويرًا واستثمارًا وحمايةً أو ينبغِي أن يكونَ كذلك .

وهذا يستوجب أن يكون ذلك الأستاذ الجامِعيّ مؤهلاً لذلك في ميدان تخصّصه على الأقل ، وألاّ يكون الفارق الجوهريّ بيْنه وبين المعلم النّابه في مرحلة التَّعليم والتعلّم ما قبل الجامعة فارقًا في الكمِّ المعرفِيّ والعلمي في التّخصّص ، بل لا بدَّ أن يكونَ الفارق الجوهريّ في مهارته وقدرته على صناعة الإنسان الصّالح المصلح الصّانع للمعرفة وللعلم ، المنتج غيرِ المستهلك في هذا الباب .

صحيحٌ أنَّ وفرة المحصول العلميّ والمعرفيّ والثّقافيّ وجِدَّته وتنوُّعَه في كثير من جوانب الحياة وفي ميدان التخصّص العلميّ أمرٌ مسلّم بتميّز الأستاذ

الجامِعي عمَّا عداه من المشْتغلين بفريضة التَّعليم والتَّعلم ، إلاّ أن ذلك ليس هو المأمّ والغاية ، إنْ هو إلا وسيلةٌ وأداةٌ لتحقيق الغاية : صِناعة الإنسان الصّالح المصلح المنتج ما يستهلكه الآخرون ، لا المسْتهلك ما ينتجِه الآخرون .

العقل الذي يحسب أن من نعم الله ﷻ أن سخر غيرنا ليعمل وينتج لنطعم وننعم ونتفرغ للصلاة والقيام والصيام إنما عقل غير فقيه .

النّعمة أن تعمل وتنتج لك ولغيرك (أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق) ، أن تطعم من عمل يدك ، فقد نهينا أن نتموَّل من سؤال أو تشوف نفسٍ(١) .

* * *

الواقع المشهود يؤذن جهارة أنّ غيرَ قليل من مجتمع الأساتـذة الجامعيين لا يصنعون طعام عقولهم بعقولهم ، فكيف سيصنعون غيرِهم ويبنون عقولهم ، وإحالتهم من مستقبلين للمعرفةِ مستهلكيها إلى صانعيها ، ذلك أنـَّهم لا يرون أنّ ذلك من رسالة حياتهم ، ولأن أشياخهم أيضًا لم يمارسوا معهم هذه الصناعةَ ، فجعلوا شعارهم : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (الزخرف:٢٢) .

وهذا يستوجب أن يزال هذا العائق بوجوب اكتساب الأستاذ الجامعيّ ، ولا سيّما القوّامون على ما يُسمّى « بالدّراسات العليا » ، مهارة صِناعة الإنسان وبناء العلم والمعرفة ، وهذا إنّما يكون بوجوب أن يكون من الإنتاج العلمي الذي يرقَى به إلى درجة علمية أعلى عملٌ علمي متخصصٌ في بناءِ المناهج في

---

(١) روى الشيخان البخاري في كتاب « الأحكام » ومسلم في كتاب « الزكاة » بسندهما عن سَالِم بْن عَبْدِ اللَّهِ أَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ : كَانَ النَّبِىُّ ﷺ يُعْطِينِى الْعَطَاءَ فَأَقُولُ : أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي . حَتَّى أَعْطَانِى مَرَّةً مَالاً فَقُلْتُ : أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ وَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ ، وَمَا لاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ » .

تخصصه ، وبناء العقل ، وأن تكون الدّراسة المنهجية التي يلقيها على اللجنة المختصة دراسة في المنهج ، وليست كلها في تطبيقات متن العلم الموروث ، فالشأن في التطبيق أن يكون السلطان للقاعدة ، بخلاف التجريب ، فالشأن فيه العود بالنَّفعية الحسْنَى على متن العلم بالتَّجديد والتَّزكية والتّذكية .

وممّا يحسن أو يجب أن يؤخذ به أن يحصل المدرس الجامعيّ ومن فوقه على دورات تدريبية جادة معمّقة في مناهج التّفكير وصناعة العقول ، وفي التَّنمية العقليّة للإنسان ، لا يؤذن له بالتّقدم إلى التَّرقية إلا بعد حصوله على هذه الدورات الجادة وتفوقه فيها .

وممّا يحسن أو يجب أن يؤخذ به أن عضو هيئة التدريس الذي لا يمارس البحث العلمي الجاد بعد حصوله على الدكتوراه أو التّرقية إلى درجة أعلى حتى ولو كان أستاذًا ، ينحّى عن القيام بالعمل عضواً في هيئة التدريس ، فمن يعجز عن أن يمارسَ صناعة بحوث علميةٍ راقية يرقّى بها فكيف يمكن أن يبقَى مؤتمنًا على صناعة طالبِ العلم وهو الذي لم يصنع نفسه ، وكيف يثاب على هذا الإهمال والتّكاسل والإفساد بأن يستعان به بعد بلوغه سنّ التقاعد أستاذًا أو مدرسًا متفرغًا ، وهو الذي ما استُفِيدَ به وهو مدرسٌ أو أستاذٌ عامِلٌ.؟!!!

أليس هذا من العبث الذي تدمي له القلوب ؟

إنَّ المجاملة في هذا الميدان خيانة للعلم ولطلابه وللجامعة ، وللأمة جمعاء .

إن عائق ندرة الأستاذ الجامعي المؤهّل لصناعة العلم وبناء العقل لا يقل أثرًا فادحًا عن أثر عائق فساد منهج التعليم والتعلم في الدراسة الجامعية العالية والعليا معًا .

* * *

وليس كلّ من رقّي إلى درجة أستاذ بنتاجٍ هو لا يعدو أن يكون تصنيفًا وتأليفًا لما استجمعه من المصادر والمراجع وكفى بأهلٍ لأن يكون أستاذًا في الدراساتِ العليا . على الجامعة أن تنشئ درجة علمية : « أستاذ الدراسات العليا » بدلاً مما كان يسمى قبل « أستاذ كرسي » لا ينالها إلا أصحاب الخبرات في صناعة العقل العلميّ الناقد والمبدع في التخصص ، وأن يتعلم طلاب العلم وأقرانه من نتاجه العلمي منهجية التفكير بكل ضروبه ، أكثر مما يحمل عنه من المادة العلمية المتداولة في الأسفار .

أستاذ الدراساتِ العليا يجب أن يكون ذا نمط خاصٍّ في التفكير في المنهج الّذي يمارس بِه تفكيره فيما هو متخصّصٌ فيه .

ويجب أنْ تكونَ رسالة حياته أن يصنع العقول النيّرة لا أن يحشوها بشوارد الأقوال وأوابد الآراء وغرائب المذاهب . وكأنّ عرض الشوارد والأوابد هو المزية التي يحرص عليْها .

ويجب أن يكونَ أستاذًا يحسن طرح الأسئلة التي تؤرق العقول وتزعجها من سباتها ، كما يُحسن حل المشكلات ، وإقامة المنائر على مَدَبَّات التفكير .

إن اصطفاء من يعهد إليه مسؤولية بناء العقل العلمي المعرفي لطلاب الدراسات العليا أمانة لا يؤذن فيها بالمجاملة والمسامحة .

وكلّ من لا يرى أنّه أهل لذلك عليه أن يقي نفسه سوء العقبى .

روى أبو بكر الرّويانيّ في مسنده بسنده أن أبا بردة بن أبي‌موسى الأشعري ﵁ قال : سمعت أباموسى الأشعري يقول : إنّ النبيّ ﷺ وَعلَى آلِه وَصَحبِهِ يقول :

«من تولى عملاً وهو يعلم أنه ليس لذلك العمل بأهل فليتبوأ مقعده من النار»[1].

* * *

ثالثًا: العوائق فِي مجال الزّاد العلمي والمعرفي المقدّم للطلاب

الأصل في التّعليم والتعلّم الجامعيّ أنّه لا يعرف الانحصار في ما يُسمّى «المقرر الدراسيّ» الّذي هو سمة التعليم قبلَ الجامعيّ.

التّعليم الجامعي يقوم على دراسة قضايا ومشاكل وبرامج، ولا يقوم بدراسة كتبٍ ومذكرات تلقن للطلاب في قاعة المحاضرات.

قاعة المحاضرات يجب أن تكون مكان إرشاد، وإعداد الخطة للعمل في المكتبة، ثم يمضي الطلاب إلى المكتبة تحت إرشاد أستاذهم للقيام بجمع المادة العلمية من المصادر والمراجع، وتهيئتها بالتوثيق والتحقيق والتنسيق لممارسة الدراسة والتحليل والمناظرة والتقويم واستنباط الكليات الضّابطة، بحيث يكون لكلِّ طالبٍ شخصيته في الوفاء بهذه الفريضة، على أن يكون الأستاذ قوّامًا على ذلك كلِّه بالنّصيحة والمتابعةِ في حزم رؤوف.

ذلك ما يجب أن يكون إن لم يتحقق على تمامِه في مرحلة الدّراسات العالية في القريب العاجل، فحقٌّ لا هوادة في القيامِ به أن يتحقَّقَ في مرحلة الدّراسات العليا.

الزاد العلمي والمعرفي يجب أن يتجاوز تعيين كتابٍ أو صِناعة «مذكرة» ملفقة إلى مدارسة قضايا ومسائل في مراجع متعددة متنوعة، لا من حيث

---

(١) مسند الروياني. تأليف: أبي بكر محمد بن هارون الرُّوياني (ت: ٣٠٧هـ) تحقيق: أيمن علي أبو يماني، نشر: مؤسسة قرطبة ـ القاهرة، ط. ١، ١٤١٦هـ. ١/٣٢٦. رقم (٤٩٥).
وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألبانيّ ٥/٣٦٤، رقم (٢٢٩٠).

موادها فحسب بل من حيث منهج كل عالم في كتابه في معالجة هذه المادة واستثمارها وما بين أولئك العلماء من تراحب ، وتفاضل مع تدريب الطالب على المناظرة ، والموازنة المعللة تعليلاً موضوعيًّا .

لَمْ أشأ أن أصف الواقع المشهود لما عليْه الزَّاد العلمي والمعرفي المقدم للطلاب في مرحلة التعليم الجامعيّ العالية ثم العليا ؛ لما أنّه مشهودٌ مسْكوتٌ عما فيه من خللٍ ونقصٍ سكوتًا إمَّا مبعثه الستر ، وإما مبعثه الرّضا طلبًا للراحة ، وإما مبعثه الاستكانة واليأس من تحريك الماء الرّاكد .

* * *

رابعًا : مجال الطالب المستثمر فيه الجهود المبذولة في الجامعة

الجامعة في أيّ دولةٍ إنّما تؤسَّس وينْفق عليها من بيت المال العام من أجل طالبِ العلم ، فصناعته وتربيته هي المأمُّ الأنفس والمحجُّ الأقدس ، وكلّ ما في الجامعة إنَّما هو في خدمة هذا الطالب ، فهو المخدوم المأمّل أن يؤتِي أكله طيبًا ، فهو أشبه بالأرض الَّتي تستثمر باستزراعها .

ومِن مَنطق العقلِ الفطريّ أنَّ من شاءَ أن يستْزرِع أرضًا فإنَّ أوَّل ما يبدأُ به هو أن يجتهد في اختيار الأرض الصّالحة لما يريد استزراعه ، ولكلِّ محصولٍ زراعيّ أرضٌ هي الصّالحة له ، ذلك ما يقضي به العقل الفطريّ الذي لا يمكن لذي عقل أن يتوقفَ في التَّسليم بِه .

طالب العِلم هو الأرض التي تريد الأمّة والجامعة استزراعها ، ففريضة عَين لا يتسامح في التّقصير في كمالها أن تجتهد الجامعة في اصطفاء الطالب الذي سيُبذل في صناعته من الجهود والأموال ما لا يُحَدّ . وهذا الاصطفاء يَجب أن تمارسَه الجامعة نفسها ، ولا تكل أمره إلى غيرها ، وألا تجامل في هذا ، ولا يكون معيار الاصطفاء شكليًّا .

قلت إن اختيار الطالبِ الذي ينتسب إلى فرع من فروع العلم في الجامعة يجب أن تمارسه الجامعة نفسها ، وهي ليست بالمسؤولة عن أن تستقبل كلّ من اجتاز اختبار الشَّهادة الثانوية الأزهرية ؛ لما نعلمه علم يقين أن هذه الاختبارات يصيبها من العوار المستفحل .

يجب أن تكون الشَّهادة الثانوية مرحلة تعليميّة منتهية ، لا يلزم أن ينتسب إلى الجامعة الأزهرية كلٌّ من حصل عليْها ، بل الواجب أن يتم اختيار الصالحين منهم لهذا المستوى العلمي والمعرفيّ في الجامعة، ذلك أنّه ليس من مسؤولية جامعة الأزهر أن تخرج للوطن موظفين يديرون دولاب العمل بها .

هي جامعةٌ مسؤولة عن صناعة علماء في علوم العقيدة والشريعة وما يعين عليها ، يتولون مسؤولية تحقيق العلم وتطويره ونشره ، وهذا يميزها عن غيرها من سائر الجامعات في هذا القُطْر على تعددها.

الغفلة عن فرادة مسؤولية جامعة الأزهر وتميزها عن مسؤولية الجامعات الأُخَر في القُطْر ، هو الذي جعل القائمين عليها لا يلقون بالاً للحزم في اختيار الطالب المنوط به القيام برسالة هذه الجامعة إزاء علوم الإسلام فهمًا وإفهامًا ، ودفعًا لشبهات متهاوية في ذاتها مستفحلة في العامة بأفاعيل وسائل الإعلام الخاصّة.

هذا يستوجب أن يكون الطالب المنتسب إليها قد اختير بعناية بالغة اختيارًا يتولاه صفوة من علماء الجامعة يتسمون بالصدق والأمانة والشجاعة النفسيّة ، فلا يجاملون ولا يطمعون في استرضاء أحدٍ مهما علا قدره في المراكز القياديّة للدولة .

والأمّة الإسلامية ليست بحاجة إلى تكاثر متخرجين في كليات علوم الإسلام بقدر ما هي محتاجة إلى متميزين في ذلك ، فواحدٌ كميلٌ حسينٌ عقلاً وخلقًا خيرٌ من عشراتٍ لا يملكون ما يؤهلهم لأن يكونوا طلاب علم في أي جامعة ،

فكيف يكونون طلابًا في جامعة الأزهر يحملون أمانة تعلم علوم الإسلام وتعليمها بلسان حالهم ومسلكهم قبل لسان مقالِهم .

لست هنا بصدد رصد الصورة السلبية لكثير من طلاب جامعة الأزهر في كليات العلوم الإسلامية ؛ لأن تلك الصورة لا تخفَى على ذي عينٍ ، وإنما أنا مهمومٌ بتحفيز واستفزاز أصحاب القرار إلى أن يتحلوا بالشجاعة الأدبية التي تحملهم على أن يتخذوا ما ينقذ التعليم والتعلم في كليات علوم الإسلام حسبة لله ربّ العالمين غير مجاملين ، ولا خوَّارين .

ومثل هذا يحتاج إلى مزيدٍ من التشاور والتناصح واتساع الرؤية ونفاذها ، وإلى صفاءِ قصدٍ وفتوة عزم وشجاعة قلبٍ رشيدٍ حتى نجتمع على كلمةٍ تنقذ ما تبقّى .

إن من أوجب الواجبات في اختيار الطلاب الذين يريدون الالتحاق بإحدى الكليات الأزهرية : أصول الدين والشريعة واللغة العربية والدراسات الإسلامية والدعوة ، والتربية (أقسام العلوم الإسلامية ، وعلوم اللغة العربية) أن يكون حافظًا للقرآن كله ، ومُجيدًا ترتيله ، ومُجيدًا كتابته بخط واضح ، وأن يتم اختباره من قبل إدارة الجامعة بالقاهرة بعد الفراغ من اختبار الشهادة الثانوية بأسبوعين على الأقلّ أمام لجنة علمية مختصة تشرف عليها كلية القرآن وعلومه ، وألا يقل مجموع درجاته عن خمس وسبعين درجة من مئةٍ ويرفق وثيقة بذلك من اللجنةِ مع أوراق التقدم للترشيح إلى مكتب التنسيق .

والأمر ليس خاصًّا بطلاب المرحلة الجامعية الأولى (العالية : الليسانس) بل هو أولى في اختيارِ طلاب الدّراسات العليا في هذه الكليات .

ففريضة عين ألَا يقبل أي طالبٍ في الدراسات العليا إلا إذا كان حافظًا للقرآن الكريم كله محسنًا ترتيله ، وأن يتم اختباره عند الالتحاق بالكلية ، وفي نهاية كلّ عامٍ ، وعند تعيينه معيدًا ، وعند تشكيل لجنة المناقشة لبحث الماجستير والدكتوراه ، ثم عند ترقية أعضاء هيئة التدريس إلى الدرجة العلمية .

يجب أن يكون حفظ القرآن أصلاً في كلّ ذلك ؛ فهو المزية التي تنفرد بها جامعة الأزهر على مستوى العالم كلّه .

أقلُّ ما يجب الآن الإسراع في تطبيق ذلك على من يريد الالتحاق بالدراسات العليا ، فنحن بحاجة إلى جهودٍ صادقة لصلاح شأن ما يسمى « كلية الدراسات العليا » في علوم الإسلام في الجامعة ، ولا سيما اختيار الطالب والأستاذ والزّاد العلمي ، ومنهج تكوين العقل العلمي المعرفي للطلاب والبحث العلمي المجترّ المتشارد ، ومنهاج القياس والاختبار والإجازة والإشراف على مشاريع البحوث العلمية ، وتسْجيلها ، واختيار مشرفيها ومناقشيها .

يحب أن تتحمل هذه الكلية مسؤولية الدراسات العليا كاملةً في جميع جوانبها .

وألا تكون مجرد مكان للجمع بين الطلاب والطالبات في قاعة واحدة في أثناء الدراسة ؛ تمهيدًا لتعميم تجربة « الاختلاط » في مرحلة التعليم الجامعى الأولى (العالية : الليسانس) ثم المرحلة الثانوية ... ليفقد الأزهر مزيته النبيلة التي يتفرد بها بيْن الجامعات المصرية .

* * *

خامسًا : العوائق في مجال القوانين واللوائح والأنظمة المتحكمة في عمليتي التعليم والتعلم وبناء العقل والعلم والمعرفة بناء متصاعدًا متكاملاً فاعلاً في حركة الحياة

لكلّ جامعة قوانين ولوائح تنظّم ما هو منوط بها كيما يكون أمرها مطردًا غير خاضع لرؤية من يتولى أمرها ؛ ليتحقق الاستقرار التنظيميّ في جميع مجالاتها ، وهذا في نفسِه وإن كان فيه من الحكمة قَدْرٌ وافرٌ ، فإنّ من الحكمةِ أيضًا أن يعادَ النَّظر في هذه القوانين واللوائح المنظمة سَيْرَ العمل في تلك الجامعة لتتواءم مع حركة الحياة ومتطلباتها الّتي لا تعرف الثباتَ ، فما كان

صَالحًا لحياة الجامعة عند نشأتها، وعند إصدار تلك القوانين بات بعضه مفتقراً إلى إعادة النظر فيه ، ولا سيَّما ما يتعلق بالجانب العلميّ ومتطلبات الإجازة ومنح الدَّرجات العلميةِ وما يتوجَّب تحقِيقه لمنح هذه الإجازات .

وأوّل ما أراه مستحقًّا إعادة النَّظر فيه إنما هو متطلبات منح الدرجات العلمية بدءًا من الإجازة العالية إلى درجة الأستاذية .

لم تعد المهارات التي كانت مستحقة لمنح درجة الإجازة العالية (الليسانس) كافية في الوقت الحاضر ؛ ذلك أنّ حركَة الحياة تتطلب أن يكون المتخرج في الجامعة قد اكتسب قدرات ومهارات ومعارف يحتاجها العصر وحركة الحياة المتجددة ، وما يحيط بالأمّة من داخلها وخارجها من أخطار وأزمات تستوجب أن يكون المتخرج في جامعة الأزهر أهلاً لأنْ يصنع في الحياة ما يجعلها خاضعة لما هو الحقّ وناشرة للخير في النّاسِ كلّ النّاس .

والأمر أكثر استيجابًا فيما يتعلق بقوانين الدّراسات العليا ولا سيّما البحوث المقدمة لنيل درجة التخصص (الماجستير) والعالمية (الدكتوراه) .

نحن بحاجة بالغة إلى ضوابط تعصم من التساهل في تسجيل البحوث والإشراف عليها وإجازتها .

لإزالة هذه العوائق في مجال القوانين واللوائح لا بد من عقد عدة اجتماعات جادة من المختصين بالأمر ، وأن يكون لكبار الأساتذة الجادين أثر في هذا بما يحقق العدالة ويحمي الجامعة من عبث الفاسدين والمفسدين .

* * *

سادسًا : عوائق مجال القيادة الإداريَّة على مستوى الجامعة والكليّة والقسم

غير خفِيّ أنّ الإدارة علم ومهارة وخبرة وليس كلّ من حمل درجة علمية بأهل لأن يكون رئيسًا لقسم تخصصه الذي يعمل فيه .

وإسناد هذه المناصب بالأقدمية هو عين الفساد والإفساد في الأرض. وليس كلّ متميز في تخصصه العلمي بأهل لأن يتولّى عملاً إداريًّا ، فإذا كانتْ رئاسة القسم العلمي أمرًا لا يجيده كلّ أستاذ لما له من متطلبات إدارية وقيادة وحنكة وحكمة قد لا تتحقق عند كثير ، فكيف يكون ذلك في عمادة الكليات ورئاسة الجامعة ، مثل هذه المناصب لا يحسن أن يشغلها إلا من اجتاز دورات علمية معمّقة نظريًّا وعمليًّا في الإدارة وتيسير الأمور والوعي بالقوانين واللوائح المنظمة .

إن غير قليلٍ ممن يتولون مناصب رئاسة الأقسام العلميـة وعمـادة الكليات لا يُحسن تصريف أمور مدرسة ابتدائية ؛ لضعف شخصيته القيادية وإن كان في تخصصه العلمي وعاءً مُلِئَ علمًا ، فهو خزانة علم وزنبيل معرفة يتدفق بما هو مخزون فيه من منتج الأغيار من أهل العلم ، والذي ليس له فيه إلا حمله والحفاظ عليه كما تسلمه من الأسفار التي التهمها .

لهذا أرى أنَّ تولِّي بعض الأساتذة مثل هذه المناصب وهم ليسوا بأهلٍ لها ، وليسوا مهيّئين لأن يتأهلوا لها ـ إنما هو من العقبات الكؤود في تحقيق التقدم العلمي للجامعة ، وفي تحقيق صناعة الإنسان ، وبناءِ العقل والمعرفة المحقق للأمن الفكري للفرد والجماعة والأمة .

إن كثيرًا من الإشكالات والمنازعات القائمة بين أعضاء هيئة التدريس في الأقسام العلمية وفي الكلية ، بل وفي الجامعة ، مرجعها إلى افتقار من يتولى إدارة القسم أو الكلية أو الجامعة إلى العلم والخبرة في الإدارة ، وإلى الحكمة وسياسة الواقع ، وإلى النزاهة النفسية ، وإلى الشجاعة الأدبية التي يحققها في يقينه العلمي والعملي أن من أرضى الناس بسخط الله وكله اللهُ تعالى إليهم فلا يكون له منهم إلا ما يسوء وينوء .

السبيل القويم في هـذا أن يكـون تـولّي هـذه المناصـب وفـق بـرامج تطـوير وتجديد الحركة العلمية والمعرفية ، وبناء عقول الطـلاب في القسـم أو الكليـة أو الجامعة يتقدم بها مـن يرغـب في تـولّي منصـبٍ قيـاديّ ، بـرامج موضـوعية مؤسسة على بصيرةٍ بالواقع ، بما هو المأمول المنشود ، أو بعبارة أدق بمـا هـو الفريضة التي لا يجوز البتـة التقصـير في القيـام بهـا أو الـتأخير في إنجازهـا ، برامج عملية مقرونة بخطة تنفيذ ، وموارد التنفيذ ؛ لأنـّا بـإزاء صـناعة إنسـان ، وليس منتجًا استهلاكيًّا ، وأن يتوثق من أنه هو الذي صنع ذلك البرنامج بنفسِـه ، ولم يُصْنَع له .

إنَّ الأمر جِدٌّ ، وإن المجاملة فيه أو التَّقصير فيه عن عجزٍ أو كسَلٍ لَيَهْوي بصاحبه في النار .

روى البخاري في كتاب (الرقاق) من صَحيحه بسنده عَـنْ أَبِـى هُرَيْـرَةَ رضي الله عنه قَـالَ : قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ وَعلَـى آلِـه وَصَـحبِهِ : « إِذَا ضُـيِّعَتِ الأَمَانَـةُ فَـانْتَظِرِ السَّاعَةَ » . قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَـالَ : « إِذَا أُسْنِدَ الأَمْـرُ إِلَـى غَيْـرِ أَهْلِهِ ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

ذلك إن إسناد الأمر إلى غير أهله يترتبُ عليه فساد مستطير ، وإذا ما قام هذا الفساد في الحياة ، فلا تصلح الحياة لأنّ تستمر ، فلا يكون إلا قيامُ السّاعة.

ومثل هذا ممّا لا يقتصر ضرُّه وعقوبته العاجلة والآجلة على فاعلِه ، بل هو مِن الفتن التي تصيب فاعلها وتصيب الساكت عليها أيْضًا ، فكيف بالرَّاضي بها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(الأنفال:٢٤-٢٥).

إنَّ حقًّا على كلِّ ذي ولاية في هذه الجامعة التي هي ملكٌ للأمة كلها ، وليس لقُطْر ما ، أن يعملَ على إزالة هذه العوائق من طريق الجامعة لتحقيق التميّز الفعليّ والعملي في كلّ مجالٍ من مجالاتِها .

فريضة عين في أيّ مجالٍ من مجالات الحياة وفي مجال التَّعليم والتَّعلّم في جامعة الأزهر (جامعة صناعة الإنسان القرآني) أن تقال كلمة الحقّ وإن كانتْ علقمًا في حُلوق كثيرٍ ، وأن يُوصف الواقع وصفًا موضوعيًّا صادقًا شاملاً متغورًا ، وأن يُتَصَدَّى للفسادِ وللمفسدين ولمديريه ومعلميه وحُمَاته ، وأن تُكْشفَ العوائق في طريق التقدم إلى حيث يريد الله ـ تعالى ـ أن نتقدم إليْه ، وأنْ تُزال تلك العوائق والكُدَى والعراقيل الحسية والمعنوية بكل حزمٍ وصدقٍ وتجرّد ، وأن تتجدد المتابعة واتخاذ الخطوات اللازمة لتقرير الحق بالحقّ ، وصِناعة الخيرِ ونشرِه في الناسِ أجمعين .

* * *

إذا ما قُدِّر لهذه الجامعة أن تميط الأذى من الطريق إلى التميز والفرادة في تحقيق بناء العقل العلمي الذي هو عمود الأمر في بناء شخصيّة المرء القرآنيّ فإن « الأمن الفكري » لدى كلّ منسوبيها سيكون حاضرًا فاعلاً ، وسيكون مُحقّقًا للأمة أمنها في مجال التفكير ، فلا تضار من قبل صِناعة أفكار مبيرة تنتجتها سياسة الإسقاط والتقويل في مجال قراءة « النّص الوحي » ، وهي سياسة البحث عن تأصيلٍ مزعوم لما يقوم من الأهواء .

الطّريق الأقوم هو جعل مهارة إتقان المضي القويم في سبل الاستنباط من بيان الوحي عمودًا من أعمدة بناء العقل العلمي المعافَى من وباء الإسقاط والتقويل .

لن يتحقق للأمة أمنها وحصانتها من غوائل التفكير المغلوط بالإجراءات الأمنية الآخذة بالشبهةِ وبمبدأ الضربات الاستباقية ، وتفعيل القوة الغاشمة .. كل ذلك لن يُجْدي مهما بذل فيه من جهد وأموالٍ .

لن يتحقق للأمة أمنها الفكريّ إلا إذا تحقق للعقل العلمي فيها أمنها في أثناء ممارسته التفكير ، أما إن مارس العقل العلمي التفكير وهو يرقب حركة المتربصين به من داخل الجامعة ، وخارجها ، يُحْصُون عليه أنفاسه ، فلن ينتج هذا العقل ما ينفع البتة ، فليس أنكى أثرًا في تحقيق الخطأ في التفكير كمثل الرَّهب والرُّعب .

العقل العلميّ لن ينصر حقًّا وينشر خيرًا إلاّ إذا أَمِنَ أنه إن أخطأ عن غير عمد سيُبين له الخطأُ في رفق حكيم ، ونصح قويمٍ وإرشاد إلى التي هي أقوم ، ولن يُسفَّه أو يُرعَّب أو يُشهَّر به أو يُنكَّل .

إن العمل على إماطة الأذى عن طريق المجاهدة لصناعة العقل العلمي الرّائد الذي يحقق تجديد الفقه القويم لبيان الوحي ، وتجديد الإفهام البليغ وإيصاله إلى القلوب وتمكينه فيها ، وتفعيله ليفعل ما يراد له أن يفعل من تبيين الحقِّ ونصره بالحق ، وتبيين الخير وصناعتهِ ونشره في الناس كلّ الناس إيمانًا واحتسابًا ـ لَيكونُ ذلك تأويلاً عمليًّا لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤) .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠).

صرّف الحقُّ جَلَّ جَلَالُهُ البيانَ عن هذه الفريضة في سورة «الاصطفاء» : سورة «آل عمران» ، فجاء بها أمرًا مباشرًا في صيغةٍ بالغة القوة (لتكن) وفي صيغة

خبرية تحمل تكليفًا بالمبادرة إلى التّحقيق (كنتم) ؛ لما لإتقان القيام بها احتسابًا من أهمية بالغةٍ في تحقيقِ رسالة الوجود الآدمي في الأرض : رسالة استعمار الحياة كونًا وإنسانًا وفق مراد اللهِ ﷻ الشّرعيّ أمرًا ونهيًا ، تزلفًا وتشوفًا لمرضاته ومحبته سبحانه وتعالى .

والله الهادي إلى سواء السبيل ، وهو المستعان على طاعتِه جل جلاله .

وكتبه

مَحْمُودْ تَوْفِيقْ مُحَمَّدْ سَعْدْ